ثمرات
من مواسم الخير
(الحج - الهجرة - ميلاد الرسول ﷺ)

دكتور
محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الثانية
بها زيادات مهمة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٤٢٨٢ / ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

مطبعة التوحيد الحديثة
بشبين الكوم ت: ٣١٥٤٢٠ / ٠٤٨

المقدمة

أما قبل :

ففي أورقه .. جامعة أم القرى ..سألني الدكتور .. محمد المسير :

فيم تفكر ؟ فأجبته :

أفكر في أمرين أرجو أن يعينني الله عز وجل على تحقيقها :

أما أولهما فهو :

أحاول إتخاذ قرار الإكتفاء بمجموعة أصدقائي الحاليين فلايزيدون !؟

فقد ضاق وقتي .. ولم يعد يتسع لمجاملاتهم في أفراحهم وأتراحهم .. فضاق قلبي ولم يعد يطيق عتابهم .. مع أنني أعفيهم من مشاركتي في الحالين .. زهداً مني .. ثم رفقا بهم .

وأما ثانيهما فهو :

محاولة التعامل مع من يهاجمني أو يشتمني .. كأنه كلب عقور ..

ويعني ذلك : أنني لاأحقد عليه .. بل أمر به مرور الكرام .. فكأنني لم أسمع .. ولم ينبح !!

على حد قول القائل : فكن كأنك لم تسمع .. ولم يقل !

ووافقني الدكتور « المسير » على الثاني .. ثم تحفظ على الأول ..

وقلت:

إذن .. نتعاون على ماأتفقنا عليه .. ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفا فيه ..

ومضى بى قطار العمر .. عبر المستقبل .. ولقيت من الأحداث . ومن تصرفات الناس ما زادنى يقيناً بضرورة الأكتفاء بالأعزاء من الأصدقاء ..

بمعنى : توقف المجاملات الآكلات ساعات العمر .. وإن بقى القلب مسكوناً بأطياف الأحباب .. مهما كثروا .

ومن أسباب هذا الأكتفاء .. أو الأقتصاد فى مجال الصداقة ..

هذه الكتب التى أقدم للناس فيها عصارة فكرى .. ونبض قلبى :

فقد كنت أهدى بعضها لواحد .. فيغضب مائة .. وأخص مائة فيغضب ألوف .. وصار الأمر على ماقال الشاعر :

مال واحتجب — وادعى الغضب

ليت هاجرى — يشـرح السبب

أما أنه مال .. وأحتجب .. ثم غضب .. فهذا مايؤكده الواقع .. أما عن السبب :

فلست بحاجة إليه ليشرحه .. لأنه معروف وهو : أننى أعطيت فلاناً .. وتخطيب علاناً !

وصارت كلمة « لماذا » عدوا لى .. إلا رب العالمين .. الذى خلقنى فهو يهدين .. وقد هدانى فعلاً – سبحانه وتعالى – فقررت أن أبيع كتبى بسعر التكلفة .. وبالتقسيط .. المريح !!

وكان الأئمة والواعظ .. هم المقصودين بهذه الراحة .. وهذا التسهيل.. وفعلاً تكفلت « مطبعة التوحيد » مشكورة بتنفيذ الفكرة .. وبدأ توزيع الكتاب الأول « من ملامح البيت المسلم » على النحو الذى قلت آنفاً .. وكنت أشعر بالعلاقة الحميمة التى تربطنى بتلاميذى من الأئمة والوعاظ .. وعلى لسانى قول الشاعر :

ماأرى نفسى إلا أنتمو　　　وإعتقادى : أنكم أنتم .. أنا

ولم تمض إلا أيام حتى .. ظهر المخبوء :

فمازلت أعتبر نفسى .. هؤلاء الأعزاء ..

أما أعتقادى : فلم يكن صحيحاً !

بدليل أن بعضهم استكثر القليل .. فضنّ على المؤلف أن يرد إليه دينه.. ومع هذا .. وقبله .. كانت سخريات لاذعات .. أعفى نفسى من تكرارها !!

وكان لابد من التوقف .. ودراسة الجدوى : إنه اذا كانت « القابلة » تنستخرج المولود من بطن أمه .. وسقراط يستخرج المعانى من رأسه .. وإذا كانت المولدة تقول لمن تلد : ساعدينى بالصراخ .. على إخراج المولود .. ولكن « المرأة » فضت الصراخ .. رفضت أن تدفع الثمن الزهيد .. لتستأنف الحياة من جديد !

ولقد وجدتنى أمام هذا المشهد التاريخى لواحد من الشيوعيين متعصب لمذهبه .. ولنفسه .

(إن شعر رأسه ليقف .. لو أن طالبا قتل صاحبة البيت .. حتى لايدفع إيجار السكن !

ولكن هذا الشيوعى نفسه .. لاتقف شعرة واحدة من رأسه .. بل يصبح أصلع مثل « لينين » .. ومتى ؟

إذا وقف أحد موقف العداء من الثورة الحمراء .. الثورة التى قامت بإعدام كل أصحاب البيوت .. وكل أصحاب الأرض .. وكل الأغنياء) ؟!!

وقلت قاتل الله التعصب .. للنفس .. وللمذهب .. وللمال .. لقد كانت بائعة « الترمس » فى قريتى أشطر منى .. حين غالت بقيمة سلعتها .. فنادت عليها :

من يشترى « اللوز » منى !!

أما أنا .. فقد ضاعت من قيمتها .. لما أرخصت سعرها .. فرخص «سعرى » معها !

لقد أنتقيت واحدا ممن خاضوا فى هذه القضية .. فهرب بما لم يعرف.. أرسلت إليه من يسلمه هذه القصاصة للمرحوم « ابراهيم عبد القادر المازنى » .. والتى أعتبرها « فصل الخطاب فيما بين الأحبة من عتاب»!

قال رحمه الله :

يقول المازنى : أيها القارئ هذه مقالات مختلفة فى مواضيع شتى ، جمعت وطبعت فى كتاب بعشرة قروش لاأكثر ! ولست أدعى لنفسى فيها شيئا من العمق أو الابتكار أو السداد ، ولاأزعم أنها ستحدث أنقلاباً فكرياً فى مصر ، أو فيما هو دونها ، ولكننى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى ، وإن كان فجا، وتشترى ثمرة أطلاعى وهو واسع ، وتشترى مجهود أعصابى وهى سقيمة ، ولاتدفع إلا أبخس الأثمان!

وتعال نتحاسب : إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالة ، أى أنك تشترى كل أربع مقالات بقرش واحد .

ولا أحسب أنك تتعب فى تحصيل القرش مثلما أتعب فى كتابة المقالات الأربع من جسمى ونفسى ، ومن يومى وأمسى ، ومن عقلى وحسى.

ثم أنك تشترى بهذه القروش العشرة كتاباً ، إن لم يعمر من رأسك خراباً ، وإن لم يصقل لك نفسا ، وإن لم يفتح لك عينا ، وإن لم ينبه منك المشاعر ، فهو يصلح لأن تقطع به أوقات الفراغ ، وتقتل به ساعات الملل والوحشة ، أو هو على الأقل - زينة على مكتبك . ثم إنك قد تبيعه ، ومن ثم ترمى المصيبة على غيرك ، ثم إنك قد تفككه وتلف فى أوراقه مايحتاج إلي لف .

أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟! أما أنا فمن يرد إلى ما أنفقت فيه ؟

ومن يعيد إلى ماسلخت فى كتابته من ساعات العمر التى إذا مضت فإنها لاتعود أبداً ؟

ومهما يكن من الأمر ، أيها القارئ ، وسواء أرضيت أم سخطت ، وشكرت أم جحدت ، فتذكر أنك آخر من يحق له أن يزعم أن قروشه ضاعت عليه !

هذه كلمات المازنى منذ ٧٦ عاماً .. ولم تزل صالحة لليوم وغداً .. والحكم متروك لك أيها القارئ العزيز .

ولكن الحكم ليس إلى القارئ .. ولكن الحكم لله سبحانه وتعالى .. لقد فتح بيننا وبين قومنا بالحق .. وكان لابد - على سنته سبحانه وتعالى مع عباده المنكسرين - لابد أن يجبر الله خاطر المؤلف .. الذى ينشر علمه .. كما جبر خاطر البنَّاء الذي عمر المسجد .. وهو بيت الله .. فعمر الله بيته .. وكان من المستحيل أن تعمر بيته .. وتنشر علمه .. ثم يخرب بيتك .. ويحبس علمك !

ما هى القصة :

اتصل بى من يقول لى :

واحد من الشباب الأتقياء - من رجال الأعمال - ينتظرك فى « مطبعة التوحيد » بشبين الكوم .. ليلتقى بك .. بعدما قرر أن يطبع كتبك على حسابه الخاص .. ثم يوزعها مجاناً ؟!! وربما كان ذلك أسعد خبر فى حياتى !

فهو من ناحية : رد على الذين يحاربون كتبى .. وهم حراص فى نفس الوقت على « تسجيلاتى » ؟!

إنه رد إلهى : يؤكد أن لله جنودا .. يقفون معك حين يتخلى عنك المنتفعون بأسمك .. وفكرك .. يرسلهم الله تعالى .. وعلى غير ميعاد .. عزاء وسلوى وفى ساعة الصفر .. وقبل أن تستغرقك الهموم .. أو تغرقك ! لقد كان الموقف على مايقول الشاعر :

أين شط الرجاء ياعباب الهموم ؟

ليلتى العراء .. ونهارى غيوم !

إذا طلبوا السلام .. فقبلت .. فقيل صفح

ولقد تحقق الرجاء على يد رجل فى مثله : وإن طال الظلام .. فأنت صبح

وهذا هو الدرس الذى ألفت إليه نظر طلابى وهو :

إذا ضاقت الأمور .. اتسعت بالفرج !

وذهبت إلى الرجل فى مكتبة العامر .. واشترط علىّ أن يكون الأمر سراً .. لايعلمه إلا من يعلم السر والنجوى سبحانه ..

وقلت له : أنت تفعل أجمل مايليق بك . فتريد الأمر سترا وكتمان .. ولكننى سأفعل أجمل مايريد الشرع وهو :

نزع عطاء حق العنبر .. حتى تفوح منه رائحة المسك ! شاهدتة بأن الخير مايزال فى أمة محمد ﷺ .. وإلى يوم القيامة .. وأن الرجال أرزاق .. كما أن الأموال أرزاق .. وقد كنت رزقا ساقه الله إلى لابل إلى عشوات الألوف الذين فتحت لهم إلى العلم أبواباً .. لافتا نظر الأغنياء إلى شعيرة من شعائر الإسلام دراسة .. وهى : إتاحة العلم لمن قصرت إمكاناته بين طلابه وخطابه .

ودخل الحاج « صلاح خطاب » حياتى .. صديقاً عزيزاً . وأخا كريما . فأضاء هذه الحياة .. بعدما انقطع التيار .. وعم الظلام .. فتوقفت الأجهزة .. ولم تعد تسمع إلى وجيب القلوب .. هذه القلوب التى تنتفض اليوم حية مشوقة إلى مضاعفة الجهد .. من أجل سنة أحياها الحاج «صلاح خطاب » .. فله أجرها وأجر من عمل بها إن شاء الله .

ذكريات ... ومواقف

لكن الرواية لم تتم فصولا .. فقد كانت التجربة حافلة بالدروس والعبر وتلك واحدة من بركاتها .. وعلامة قبولها إن شاء الله تعالى :

لقد اكتشفت أن الحاج « صلاح » من القرية العادل أهلها : « ميت خاقان »[1] وفجر الاكتشاف ذكريات عزازا من عمرى :

ففى أواسط « الأربعينات » كنا طلابا بمعهد شبين الكوم الدينى .. وكانت بيوتنا تطل على مزارع المدينة الشرقية ..

وفى الليل إذا سجى .. كان يوافينا من بعيد .. صوت « مكبر الصوت» من هذه القرية .. وكأنما هو آت من وراء الغيب .. يعلن عن محاضرة لواحد من العلماء .. وذات ليلة أختلف الزملاء على أمر ما .. إلى الحد الذى قرروا فيه أن يقسموا « الحجرة » بالطباشير قسمين ؟!!

وفعلا قسموها .. وبلغت الأنفعالات ذروتها فى ذلك المساء .. لكن الصوت الآتى من القرية نادانا فاستجبنا له طائعين .. ثم عدنا .. وقد ذابت ألواح الثلج بيننا .. بما سمعنا من آيات بينات .. وعظات بالغات .. وكان أول إجراء أتخذناه هو : إزالة « خط الهدنة » بيننا وعادت الحجرة لنا جميعاً!!

---

(١) مركز شبين الكوم .

وسقى الله هذه الأيام العظام :

كنا نسرع الخطى فى الليل إذا عسس .. ثم قد تتعثر خطانا حين نصطدم بحدود الحقول وأكوام الثراب .. ولم نكن نعرف هوية المتحدث .. ولا وجهته .. كان فينا من يميل إلى « الوفد » ومنا من كان الإخوان .. ومنا دون ذلك : كنا طرائق قددا

المهم : أن ذلك لم يكن يعنينا .. وإنما مهمتنا أن نتزود بالعلم .. كائنا من كان صاحبه .. فلم يكن العلم يومئذ ملونا . . وإنما كان زادا نتشوفه .. مشوقين إليه مقبلين عليه . فإذا عدنا إلى القرية لنقضى إجازة الصيف .. كنا نستدعى بين الحين والآخر للحضور إلى « مركز الشهداء » .. لنتلقى درسا لواحد من أبناء هذه القرية : المرحوم الأستاذ «توفيق زناتى » وكان بيننا شباب ليسوا على مذهبه .. وإنما كان هناك قاسم مشترك أعظم هو : طلب العلم ..

طلب العلم .. من أى إنسان .. وفى أى مكان !

أما الموقف :

فبينما كنا جلوسا مع الرجل فى مكتبه أكتشفت أن مؤسسة معينة هى منا على مرمى حجر .. وقلت سبحانه الله !!

لقد ذكرنى الحاج « صلاح » بالشيخ « صلاح » !!

وبهما أجدد ما أقوله دائماً وهو : أن الله تعالى جابر من أراد البشر كسره !!

وذلك أجمل يحتاج إلى تفضيل :

ذات يوم دعتنى « كلية الاقتصاد المنزلى » لإلقاء محاضرة عامة .. ولما دخلت مكتب العميد وجدت تلميذى « صلاح » جالساً !

وعلمت أنه مدعو من قبل أتحاد الطلاب .. ليتحدث

بينما دعيت أنا من قبل إدارة الكلية !

وقام أمين الاتحاد .. فقدم « الشيخ صلاح » .. وكان الظن أن يعتذر عن الكلام مادام شيخه حاضرا .. لكنه أصر على الكلام .. ثم أقترح «مقدم» الحفل من الشباب أن يجيب الشيخ صلاح على بعض الأسئلة ثم يمضى .. لقضاء حاجات له .. وللناس ووقته ضيق ! وذلك كله وأنا جالس لم أدع إلى الكلام ..

لكننى « خطفت » مكبر الصوت من « سمو الأمير » قائلاً :

أنا المشغول .. وليس تلميذى هو المشغول ؟!

فقد تركت من ورائى مجموعة من رسائل « الدكتوراه والماچيستير » بين إشراف ومناقشة .. ثم تحدثت بما يناسب المقام عاتبا .. طالباً منهم أن ينتظرونى أول كل شهر هجرى لألقى عليهم محاضرة فى التفسير أو الحديث.

وتحديتهم – بناء على مارأيته – تحديتهم أن يدعونى .. لكننى لم أتلق

دعوة .. حتى كتابة هذه السطور ولكن أتلقاها فى مقابل الأيام !!

وكان من تدبير الله تعالى .. وبعد انتهاء اللقاء أن يقترب منى واحد من أعضاء الاتحاد ليسر إلى قائلاً:

الله معك .. ياأستاذ ..

وقلت له : ومعك .. ومعنا جميعاً ؟

ولكنه أردف قائلاً :

هل تعلم تفاصيل خطة اليوم ؟

قلت : لايعلم الغيب إلا الله .

قال : كان هناك اتفاق على أن يتكلم « تلميذى » ثم يجيب عن أسئلة معدة .. ثم يأمر « سمو الأمير » بالانصراف .. ليتركوك قائماً .. أنت والعميد .. والوكيلة !!

ولكن الله سلم !

وكانت سعادتى غامرة أن جاء الخبر من فرع من الشجرة التى لايهزها إلا فرع منها !

وفوضت أمرى إلى الله .. شاكياً ظلم التلميذ لأستاذه .. راجياً منه سبحانه ألا يقطع عادة جبر الخاطر .

وبعد سنوات .. يجئ (الحاج صلاح) ليعوض ماحدث فى حضور

الشيخ صلاح .. فقد تطوع بنشر ماكنت قد وعدت الطلاب به .. ثم رفضوه!!

والغريب .. أن كلية الاقتصاد .. فى نفس المربع الذى يقيم فيه «صلاح الخير » .

وكم للاقدار العليا من سخريات .. لو كان الغافلون يفهمون .

أما بعد ،،

فإذا كان الدال على الخير كفاعله .. فكم يكون أجر من فعل الخير .. ثم دل عليه

جزاه الله خيرا .. ونفع بالاسلام والمسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د / محمود محمد عمارة



خواطـــر

مسافر إلى البيت العتيق



خواطـــر

مسافر إلى البيت العتيق




وليطوفوا بالبيت العتيق

لاحظ ان التضعيف فى (وليطوفوا) يعني :

النظام .. والوحدة..

ثم ان في الطواف من ناحية اخري انسجاما مع الكون

الذي يطوف ايضا .. ومع الملائكة الكرام فى الملأ الأعلى..

ثم هو البيت..العتيق:

إنه بيت العائلة الكبير .. من البيات وهو: الأمان

والقرار .. والذى تنجو فى ظلاله من مشاعر القلق والتمزق..

وهو البيت العتيق:

القديم . . الكريم . . الحر

ومن معانى الحرية : انك فى ظلاله حر .. وكأنك تتحرك

خارج الزمن .. خارج الدنيا التى خلعتها عند اعتابه

واذا كنا نقول اليوم:

أجمل مكان فى الدنيا هو بيتى ..

فإن اكمل البيوت على الاطلاق .. هو بيت الله تعالى .

الرحمة السابغة

في الحج : رحمة الموافقة..

فأنت تلبى .. وتقول : آمين..

ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة .. فقد فاز

ثم فيه : رحمة الجوار:

فالملائكة كصالحى البشر:

هم القوم .. لا يشقى جليسهم.

ومع ما فى الحج - إلى جانب الرحمة - من منافع دنيوية كثيرة ..

إلا أن الحاج لا يتمتع بثمراتها ما دام ساهيا لاهيا..

وعليه أن ينسى حظ نفسه.. وأن يهضمها فى تعامله مع الاخرين.. حتى يكون قلبه للرحمة مستقرا ومقاما.

الاحــرام

بالاحرام .. تكون قد تخليت عن ملابسك القومية.. ثم انصـهرت مع غيرك:

فأنت عندئذ أوسع ما تكون قلبا..

أو هكذا يجب ان يكون

ثم إنك بالإحرام .. دخلت أفق الممنوعات

١- ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ..

٢- فلا رفث ولا فسوق ولا جدال

٣- الطير لا يصاد .. والشجر لا يقطع

حتى لو لقيت في الحرم من قتل أباك.. فلا تتعرض له

تهوي إليهم : وهذا شوق القلب

تجني إليه ثمرات :

وتلك حاجة " القالب"

وارزقهم من الثمرات

١- سخر لهم الرزق سهلا .. ليتفرغوا لخدمة البيت :

ارزقهم بفضلك رزقا :

آ- أوفر الرزق

ب- وأجــوده

ج- وأرخصه ثما

النظــام فى الحـج

لم يمكن النظام فى الحج بالقلم .. والمسطرة ..

بدليل تفاوت مواقيت الحج قربا وبعدا من الحرم ..

ومن رحمة الله تعالى أنه عز وجل

هو الذى وضع هذا النظام ..

ولو كان إلينا .. لصار الأمر فوضى

بدليل "الحمس: الذين كانوا يقفون فى المزدلفة لا فى عرفات

مغزى رمى الحجرات :

هو تذكير بالمعركة الدائمة بيننا وبين الشيطان :

فهو لا يفتأ يوسوس لنا ..

ونحن لا نفتأ نرفض وسوسته على قدر استطاعتنا ..

والموقف يشبه التعبئة العامة .. واليقظة الدائمة . لهذا العدو الرجيم المقيم !..

ثم لجنودة من شياطين اليوم ..

والذين كانوا أشد علينا من شياطين الجن :

لأن هؤلاء نتوقاهم بالاستعاذة

أما شياطين الانس .. فلا !!

من تيسيرات الحج :

من مظاهر هذا التيسير : الرمي :

١- صحة النيابة عن النساء والشيوخ

٢- الرمي : ليس ركنا من أركان الحج

٣- أصحاب الأعذار .. مستثنون من مباشرة الرمي .

٤- والرمى : طول اليوم وليس محصورا في لحظات قصار

٥- يمكن صناعة آلة " كالبند قية" يرمي بها .. ومن بعيد

٦- ينوب الوكيل عشرة من الضعاف.

٧- إذا كان من حق " الطير " " والشجر " ألا يؤذي

فكيف الانسان .. وهو أكرم على الله

تعلم أبو حنيفة من الحلاق لما أراد الحلق بعد الحج

قال الحلاق له :

هات شقك الأيمن

فلما سكت .. قال له : كبر

ولما أراد الانصراف قال له :

صل ركعتين !

اما ابن أدهم .. فقد علم هو الحلاق .. وكان درساً

فى الاخلاق :

اشتغل بالحصاد يوما .. فجمع عشرين دينارا ..

ولما ذهب إلى الحلاق .. تخطاه فى الدور

لرثاثة هيئتة ..

ومع هذا فقد اعطى الحلاق المبلغ كله ..

ولما سئل فى ذلك قال .

حتى لا يحتقر أحدا بعدي !!

لا تحج المرأة الا بمحرم ..

ولكن العلماء اختلفوا :

هل هو شرط للوجوب

أو شرط للأداء

قال قوم بالأول ..

وقال قوم بالثاني

ثمرة الخلاف إذا لم تجد محرما

إذا ماتت ولم تحج فعلى الاول لم يجب عليها الحج لأن شرط الوجوب وجود محرم ..

ولا محرم ! واقتسم الورثة مالها .. ولم يكلفوا من يحج عنها

اما على الثاني :

فواجب إخراج نفقة الحج .. لانه وجب عليها .. لكنها لم تجد المحرم.

روت " أم حكيم " قال صلى الله عليه وسلم :

(من اهل بالحج او العمرة من بيت المقدس غفر له ما تقدم من ذنبه . ووجبت له الجنه)

ولقد سافرت "أم حكيم" رضي الله عنها من المدينة الى البيت المقدس..

ثم احرمت من هناك .

وإذا وجد فينا مشتاق تمنعه ظروفه من فعل مثل ما فعلت أم حكيم .. فان له فى سماحة الاسلام متسعا :

فليرسل زيتا يسرج به

ومن لم يستطيع فعليه ان يرسل حجرا ..

أو مالا .. لصبى عربى مسلم هناك !!

البناء للمجهول يدل على كثرة المغفرة .

لا ترفع المرآة صوتها بالتلبية ..

وقارا .. وخشوعا ..

وليس لأن صوتها عورة :

لان إحرامها : كشف وجهها ..

فكيف يكون صوتها عندئذ عورة فلا ترفعه ؟!

من الحكمة .. إلى الحكمة

ركز الشيخ على أهمية ان يكون النائب فى الحج . قد أدى الفريضة عن نفسه اولا .

ثم فصل حكم ذلك تفصيلا

وكان عليه أن ينفذ الى الاعماق تنويها بالحكمة هنا :

فالابن الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن حكم نيابته عن والده فى أداء فريضة الحج هذا الابن :

يمثل قيمة البر .

البر بوالده الذى مات ..

وإذن فهو البر الخالص ..

لأن الوالد الحى .. يكون بره واردا ..

أما وقد مات .. فهو الوفاء

ولقد كانت قيمة البر ظاهرة عائلية .. زمان فقد قامت المرأة بدو رها فى تدعيمها .. حين سألت نفس السؤال .. راغبة فى الحج عن أبيها أو أمها ..

وبهذه القيمة العظيمة بقيت امتنا .. وستبقى ..

وقد يغتر ناس اليوم بأعمال ضخام عظام .. ولكنا نقول لهم : ستظل عظيمة مع إيقاف التنفيذ - حتى تتأكد قيمة البر : بر الوالد .. وبر المعلم

بيت عظيم ... قديم

اشترك فى بنائه الشيوخ والشباب :

فتواصلت الأجيال .. بالتعاون على بناء أضخم فى التاريخ :

هذا البناء الذى لم يكن حجرا يوضع فوق حجر .. ولكنه كان إعلانا لمبدأ التوحيد .. والذى تتوحد به الأمة .. واذا كنا نبدأ فى تربية شبابنا «بالقدم » فى الملاعب .. فإن القرآن يشير إلى ضرورة أن تكون البداية بالعمل .. وبالأمل .. صقلا للشخصية التى تخرج من تجربة الكفاح أقدر على النجاح فى قابل أيامها .

قاهرة الطغاة :

ومن أسماء مكة المكرمة « بكة » ..

التى تبك .. تسحق .. من أرادها بسوء ..

واذا كان الله تعالى يكيد للمدينة كيدا .. حين يذيب من أرادها بسوء كما يذوب الملح فى الماء .. فإنه تعالى يغار على مكة فيأخذ من أرادها بسوء أخذ عزيز مقتدر .. كأن لم يغن بالامس .

قلت للغنى :

الذى فضل الحج بالباخرة ليستمتع برحلة بحرية شائقه ..

قلت له :

فرق ما بين بالباخرة والطائرة : خمسة أيام ..

وقد أضعت بهذه الأيام فى صحبه الباخرة أضعت ثواب نصف مليون صلاة فى الحرم على الأقل !! (الصلاة بمائة ألف)

وقلت ذلك للفقير أيضا : معتمرا أو حاجا :

فقد كان بإمكانه كالغنى توفير خمسة أيام لو سافر بالطائرة .. مع فطم شهوة شراء الهدايا مما لا يكون شراؤه ضرورة .. لتضيف ثمن الهدايا .. تكمل به ثمن تذكرة الطائرة !!

فريضة الحــج

ودروس فى الدعوة

يقـول الله عـز وجل : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

آل عمران «٩٥ . ٩٦ » .

يعتبر الحج – كما قيل بحق – دورة تدريبية من دورات الإصلاح .. لا ينخرط فى سلكها إلا المستطيع : ماليا ونفسيا وعقليا .

واذا كـان المسلم يؤدى الصـلاة بين أهله وولده .. وفى وطنه .. ثم يصـوم كذلك .. فـإن مـشـقـة الحج تبـرز حين تدرك اتصـاله بمجـمـوعـة من الغـرائز التى يطلب من المسلم أن يسـتـعلى فـوق رغـبـاتهـا .. منطلقـا من أسارها إلى حيث يطفىء جذوة الأشواق :

إن غرائز الأبوة .. والأمومة .. والتملك .. تناوش الإنسان فى محاولة لصرف همته عن أداء الفريضة .. ولكنه ينتصر عليها حين يفارق أحبته .. ثم كيف يجود بأعز ما يملك وهو المال بل إنه لينتصر على غريزة حب الحياة نفسـها حين يلقى بزمـامـه الى الله تعـالى فى سـفـر قد يكون آخر عـهـده بالحياة .

إلى جانب ما تفرضـه المخالطة من ضبط للنفس .. وتسلح بالصبر .. بل والعـفـو .. فى اتصاله بمن لا يعرف من أجناس البشر الذين لا عـهـد له بهم ولا بتقاليدهم وعاداتهم .

مع الفخر الرازى :

وقد كشف الفخر الرازى عن بعد آخر من أبعاد فريضة الحج .. يجعل منها امتحانا عسيرا .. لا ينجح فيه إلا الذين صبروا .. يقول : اعلم أن تكليف الشرع فى العبادات قسمان : منها ما يكون أصله معقولا .. إلا أن تفاصيله لا تكون معقولة . مثل : الصلاة ..

فإن أصلها معقول وهو : تعظيم الله .

أما كيفية الصلاة فغير معقول .. وكذا الزكاة .

والصوم : أصله معقول وهو : قهر النفس .. لكن كيفيته غير معقوله .

أما الحج :

فهو سفر إلى موضع معين . على كيفيات مخصوصة .. فالحكمة فى كيفيات هذه العبادات غير معقوله . وأصلها غير معلوم .

اذا عرفت هذا فنقول :

قال المحققون : إن الإتيان بهذا النوع من العبادات يدل على كمال العبودية والخضوع من الاتيان بالنوع الاول :

وذلك . لأن الآتى بالنوع الأول .. يحتمل أنه عرف بفعله بعض وجوه المنافع فيه .

أما الآتى بالنوع الثانى – وهو الحج – فانه لا يأتى به إلا لمجرد

الانقياد والطاعة والعبودية ..

فلأجل هذا المعنى اشتمل الامر بالحج فى هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد .

وهذا ما أكدته الاية الكريمة

من فقه الآيات الكريمة :

ومن حكمة الله تعالى أن تجيء على الصورة التى تؤثر فى المتلقى .. على نحو ينتهى به إلى الاقتناع .. فالانصياع - ثم الاتباع .

يتبين ذلك مما يلى :

فالآيات مفتتحة بقوله تعالى :

﴿ قل صدق الله ﴾

والتعبير عن صدق الله تعالى بالفعل الماضى دليل على أن القضية محسومة سلفاً ..

فأنتم لا تطالبوا اليوم بالتصديق .. بل إن صدقه سبحانه وتعالى أمر مفروغ منه .. ودوركم هو نتيجة هذا الصدق .. فتلك هى مهمتكم الأساسية فالله تعالى خير الصادقين : فماذا أنتم فاعلون ؟

أن ترتبوا على هذا الصدق ثمرته باتباع رسول الله الخليل .

والذى دعاكم باسمه إلى الله تعالى .

هذا الرسول الكريم . . كانت خصيصته العظمى هى : النفور من الشرك . . بل إن جبلته غير صالحة ابتداء ليكون مشركا .

وما دمتم تزعمون السير على ملته وتلمس طريقته فقد وجب عليكم أن تسيروا على هديه . .

ومن هديه : حج بيت الله الحرام .

من ملامح التربية القرآنية

ومن واقعية المنهج القرآنى أنه يكلفنا بما قد نراه شاقا علينا ولكنه يعيننا على الالتزام ببيان ما يسهل علينا مهمة الاتباع . المأمور بها فى الآية السابقة . .

وكان ذلك واضحا فى بيان عظمة هذا البيت وشرفه :

فهو مبارك . . وهو هدى للعالمين . . وقبل ذلك فهو :

أول بيت وضع للناس .

ومادة الكلمه تشير إلى أنه "ببكه" التى "تبك" أى تدق أعناق الجبابرة . . لا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقة وبقى البيت قوى الأركان رمزا للإيمان .

ثم هو مبارك : نام . . متزايد الخير . . باق . . دائم . .

إنه إذن مهبط الخير ومعينه المستقر الذى لا ينضب أبدا .

[من برك البعير : إذا وضع صدره على الأرض وثبت ثم استقر]

ثم هو البيت الموصوف بالهدى : بالمصدر نفسه . . فهو أصل الهدى ورمزه الباقى .

ثم هو قديم . . وفى القدم معنى : الثبات . . والوقار . . والاستمرار.

ومع ذلك كله ففيه آيات بينات :

١ - مقام إبراهيم . . وهو الحجر الذى وضع الخليل قدمه عليه . . فجعل الله تعالى ما تحت قدمه عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه . . كالطين . . حتى غاص فيه قدمه .

٢ - ومن هيبته : أن الوحوش إذا تلاقت فى رحابه . لايؤذه بعضها بعضا .

٣ - ومن سكن مكة كان آمنا من غدر البشر وعدوانهم .

٤ - كان البيت فى واد غير ذى ذرع . . حتى ينقطع رجاء أهل حرمه تعالى عما سواه . لتتمكن قيمة التوكل فى قلوبهم . . فلا تكون ثقة إلا به ولا توكل إلا عليه . ولا تفويض إلا إليه.

وهذا كله درس للدعاة والمربين أن يحاولوا إعداد النفوس لاستقبال الأوامر والنواهى . . حتى يتلقاها المدعوون بالرضا والقبول . تأسيا بما ذكره الله تعالى هنا من مدح البيت بكل هذه الخصائص . والتى تريد للمسلمين أن يؤدوا الفريضه راغبين . . لا مرغمين .

قال العلماء :

والحكمة فى جعل الله تعالى هذه الأشياء قياما للناس . . أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس . . والتقاطع . والتدابر . والسلب . والغارة والقتل والثأر .

فلم يكن بد فى الحكمة الإلهية . والمشيئة الأولية . من كاف يدوم معه الحال . ومازع بحمد معه المال . قال تعالى "إنى جاعل فى الأرض خليفة"

فأمرهم الله سبحانه بالخلافة . وجعل أمورهم إلى واحد منهم يزعهم عن التنازع ويحملهم على التآلف من التقاطع .

ويرد الظالم عن المظلوم . ويقرر كل يد على ماتستولى عليه

روى عن عثمان رضى الله عنه :

"مايزع الإمام أكثر مما يزع القرآن"

وجود السلطان عاما واحدا أقل إذاية للناس من كون الناس فوضى لحظة واحدة.

فإنشاء الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة :

لتجرى على رأيه الأمور . ويكف الله به عادية الجمهور .

فعظم الله سبحانه فى قلوبهم البيت الحرام . وأوقع فى نفوسهم هيبته.

وعظم بينهم حرمته .

فكان من لجأ إليه معصوما به .

وكان من أضطهد محميا بالكون فيه . قال تعالى :

﴿ أولم يروا أناجعلنا حرما آمنا وتخطف الناس من حولهم ﴾

قال العلماء :

فلما كان موضعا مخصوصا لا يدركه ظلوم . ولا يناله غشوم

يحجر قويهم عن ضعيفهم . .

ومسيئهم عن محسنهم . .

وظالمهم عن مظلومهم . .

يحجون إلى عرصاته . فتقوم بهذه المصالح والمنافع :

إليه الأفئده وجلب فيه الأرزاق . وهو قيام لهم فى جذب أمر دينهم

ويهذب أخلاقهم ويجمع كلمتهم ويزكى نفوسهم . ويقطع دابر أعدائهم

قـــال صـــاحـبى تصـــبـــر قليـــلا
تجـد الصـبـر للخـلاص سـبـيـلا
غـــاض ذا الماء من غـــديرك لكن
سـوف يجـرى كـعـهـده سلسـبـيـلا

وتصيـر الأمـور خـيـرا وأبقى
من عـهـود قـد أمـتـعـتك طويلا
وأجبت الصـديق حـسـبك قل لى
أى نفع للمـاء يشـفى الغليـلا
سـمكى اليـوم بالجـفـاف قـتـيل
هل سـيـجـديه ذا العـبـاب قـتـيلا

قال الشاعر المؤمن المشوق :

وقـوفى بأكناف العـقـيق . . عـقـوق
إذا لم أرد والدمع فيـه عـقـيق
وإن لم أمت شوقا إلى ساكن الحمى
فما أنا فيما أدعيه صدوق
أياريع ليلى ما المحبون فى الهوى
سـواء ولا كل الشـراب رحـيق
ولا كل من يلقـاك يلقـاك قلبـه
ولا كل من يسـعى إليك مـشـوق
تكاثرت الدعوى على الحب فأستوى
أسـيـر صـبـابات الهـوى وطليق

أما بعد :

فإن نهر الحياة يتدفق بعنف . . حاملا بين طياته ضعاف النفوس . .

وقد يحاول الإنان أن يسبح ضد تياره المندفع . . ولكن . . مايلبث أن يغيب بين طيات موجه العالى فلا يفيق . .

وحتى إذا أفاق . . فإنه لا يستطيع أن يوقف مده الطاغى . .

ولا بدله من طاقة إيمانيه تعبنة على الارتفاع فوق مستوى الموج . .

لا بد له من لحظات يلتقط فيها أنفاسه . . ليعود إلى ربه راضيا مرضيا . . هاربا من ضغوط هذه الحياة اللاهية . .

ولا يتم له ذلك إلا بالعودة إلى البيت الكبير . . العظيم . . والذى يستروح فيه نسمات الراحة . . بعد وعثاء السفر . .

ولسوف يعيد ترتيب أفكاره وعواطفه . .

عائدا من الرحلة بما تقوم به حياته ..

حتى تؤتى الشعائر أكلها

يقول عز وجل : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ سورة البقرة «١٩٧» .

تمهيد :

كل مطالب الإسلام وغاياته . . لا تتم إلا بالجماعة . والجهود الجماعيه، وفى ذلك يقول عمر رضى الله عنه :

[لا إسلام إلا بجماعة]

يقول ذلك منطلقا من قاعدة السنة المطهرة التى تقرر أن من خرج عن الجماعة . . فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . وإن صام وصلى . . وزعم أنه مسلم . .

ومن أسرار العبادات أنها تجمعنا . . لنستطيع بهذه الوحدة أن ننجز الأعمال الكبار . ونصل إلى الغايات البعيدة التى لانصل إليها فرادى . . بل متوحدين . وقد قيل فى هذا المعنى :

[إنها شعائر ظاهرة . خاصة بهذا الدين وحده . . واجبة وجوبا عينيا، مقصورة للشارع قصدا أوليا ، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولا وبالذات . . ومصالح الدنيا ثانيا وبالعرض.]

وتأخذ فريضة الحج دورها المرموق فى توحيد الصف المؤمن . .

وحتى ينشئ الحج تلك الأمة الواحدة . . الموحدة . . فلابد

أن يكون فى وقت معلوم . . والذى حدده الشارع الحكيم . . تحقيقا لهذه الفائدة . . والتى لاتتم إلا باجتماع الحجيج فى هذا الوعاء الزمانى . . والوعاء المكانى . . من حيث لا يغنى الحج الفردى عن هذا شيئا .

يقول . . المودودى . .منوها بهذا الاجتماع الإيمانى :

إن اجتماع الشعوب التى خرجت من بين بلاد الإسلام على مركز واحد اجتماع يتسم بوحدة العواطف والأفكار ، ووحدة الميول .

ويتسم يالانسجام والتماثل .

يتسم بالأفكار الطاهرة . والعواطف النبيلة والأهداف السامية . والأعمال الحميدة .

وكل هذا فى الواقع نعمة جليلة ، لم يعطها لأولاد آدم سوى الإسلام .

إن أمم العالم تلتقى مع بعضها البعض . . ولكن كيف ؟

فى ميدان القتال ، حيث القتل . . أو فى مؤتمرات الصلح . . من أجل تقسيم البلاد ، أو من أجل تقسيم الأمم ، ، أو فى قاعة الأمم المتحدة ، حتى تقوم كل أمة بنشر شباك الخداع والغش والتآمر . . وغير ذلك . ضد الأمم على حساب خسارة الأمم الأخرى أما فى الإسلام فلتنظروا :

إنه لقاء يتم بين أناس عاديين . . ومن جنسيات مختلفة . يلتقون بقلوب صافية . . في جو من المحبة والإخلاص ولا يعقد مرة واحدة فقط بل سيظل يعقد دوما . . وكل عام وحول مركز واحد .

هل ينال الجنس البشرى هذه النعمة من غير الإسلام ؟

وهل قدم اقتراح أحسن من هذا . . من أجل إحلال الأمن والسلام فى الدنيا . وللقضاء على العداوة بين الشعوب المختلفة] ا . هـ

اشهر لا أيام

ومن الأسباب التى تجعل من هذا المؤتمر لقاء مثمرا . . أن حدد الشارع الحكيم ميقاته . . وحدده بالأشهر . . لا بالأيام . . لتتهيأ للراغبين فى الحج فرصة أطول . . فالراغبون منتشرون فى فجاج الدنيا العريضة . . ولا بد من هذا المدى الطويل ليتمكنوا من الاجتماع . . ولو كان الحج بالأيام ما تحقق هذا الهدف الكبير .

ولاحظ أن الأشهر . . مجموعة جمع تكسير ثم عاد الضمير عليها عاقلا : وذلك قوله تعالى :

﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾

لم يقل سبحانه وتعالى "فيها"

وإذا كان يوم المسلم فى غير الحج يمضى شاهدا عليه . . أوله . . فإن

أيام الحج خير شاهد . . فاحذر مخالفة الله تعالى فيها . . لأنها شاهد : عاقل . . بصير

ثم إنها : أشهر : معلومات .

لأنه إذا كانت التلبية تعنى التوحيد . . فإن تحديد الزمان يعنى الوحدة . . وبهما معا تتم نعمة الله صدقا وعدلا .

ومازال عطاء الآية الكريمة موصولا . . بما تحذرنا به من كل مايفرغ الحج من مضمونه الإيجابى . .

﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾

إنه إذا كان المسلم بالاستطاعة قد فرض عليه أن يحج فإنه وحتى تحقق الفريضة ثمراتها يجب عليه بعد أن استطاع فأطاع . أن يدرك أنه لا يحج وحده . . وإنما هو فى صحبة الملايين من كل بقاع الدنيا . . ولا بد أن يكون هناك احتكاك . . قد يصل إلى الشحناء . . وإذن . . فهو مكلف بإستنفار ضميره الأخلاقى . . ليكون حارسا عليه فلا يضيع مجهوده بكلمة نابية . .

لقد اتخذت قرار الحج بمحض اختيارك :

[فمن فرض فيهن الحج . .]

وعليك إذا دخلت ساحته أن تلتزم أدب الإسلام حفاظا عليك وعلى غيرك

[فلا رفث ولا فسوق ولا جدال]

إن فى الإنسان قوى شهوانية وغضبية ووهمية وشيطانية . . وقد استطاع الحاج فى رمضان . . أن يقلم بالصوم أظافر هذه القوى العدوانية.

وهو مطالب اليوم – فى الحج – أن يواصل رحلة الطهر . . بالاستعلاء فوق مطالب هذه القوى .

يقول الرازى هنا :

[فلا رفث : فلا فحش . . وهذا قهر للقوى الشهوانية .

ولا فسوق وهو الخروج عن الطاعة . . وهذا قهر للقوى الغضبية .

ولا جدال فى الحج : وهو قهر القوى الوهمية الشيطانية ومعنى ذلك كله :

مسئولية الحاج شخصيا عن استتباب الأمن والسلام . . تهيئة لجو تؤتى فيه الشعائر أكلها .

إن الحاكم يقوم بواجبه فى التمكين من أدائها . . ويبقى دور الحاج نفسه فى الارتفاع إلى مستوى الفريضه : طهرا ونقاء .

إن الكلمة الجارحة . . خطيئة من الضيف فى حق المضيف عز وجل .

وإذا كان المضيف يكرم زائره . . فأولى بالضيف أن يكون أهلا لذلك التكريم .

مع المفسرين :

وخلاصة ماقاله المفسرون هنا :

وتزودوا بالتقوى :

التقوى : التى تحملكم على التزود الحسى . . لمعاشكم .

ومايترتب على ذلك من :

ا - الزهد فيما فى أيدى الناس .

ب - مواساة المحتاجين منهم .

جـ - ثم إنها تقيكم من عذاب الله تعالى .

ثم يقول الله عز وجل : ﴿ **واتقون** ﴾

لقد كرر الأمر بالتقوى . . لماذا ؟

فرارا من الغرور الناشئ عن الإكثار . . ثم هو حصن على الإخلاص فيها لله عز وجل .

لا من أجل خوف أو طمع .

ولا بأس من التجارة فى الحج . . وذلك تخفيف من ربكم ورحمة . .

ربكم : المحسن إليكم . والذى عرفتموه سبحانه كذلك . فلا تعتمدوا إلا عليه .

قوله تعالى ﴿ **فإذا أفضتم** ﴾ الآية :

[إذا دفعتم ركابكم عند غروب الشمس . . ففاضت فى تلك الوهاد . . كما يفيض الماء المنساب فى منحدر الشعاب]

والعادات : أشد ماتكون على المتعبدين . . والسير على الطريق الإلهى يفرض عليكم خلعها .

وقد كان جدالهم أى : فى وقوفهم فى الحرم بغير علم

لأن العلم يقتضى أن الواقف خائف .

والخائف لا يخاف فى الحرم .

لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحرم آمنا فمن حق الوقوف أن يكون فى الحل .

فإذا أمن دخل الحرم .

وإذا دخل الحرم أمن

وقوله تعالى : ﴿ غفور رحيم ﴾

مبالغة ومن معانيها .

بليغ الرحمة : يدخل المستغفر فى جملة المرحومين الذين لم يبد منهم ذنب

فهو يفعل بهم من الإكرام فعل الراحم بالمرحوم .

ليكون التائب من الذنب كمن لا ذنب له

[فإذا قضيتم]

إن من قوانين النفس

من فرع من العبادة كان بصدد أن يستريح فيفتر عن الذكر . إلى غيره .

وكانت عادتهم أن يذكروا بعد فراغهم فاخرآبائهم فقال [فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم]

لأنهم أحسنوا إليكم بالتربية التى هى فى الحقيقة منه تعالى . .

ومع أنهم أصولكم . . فالذى أهدوه لكم هو : محنة الضلال . . ولا نعمة منهم . .

[فسبحان من رضى وهو المنعم المطلق . . الهادى . بأن يذكر مثل ذكر من كان سببا لنعمة هى لله تعالى ابتداء . . مع أن - المخلوق الوالد - سبب فى الضلال .

ورضى من الخلق :

أن يعاملوا الحق معاملة من يجلبونه من الخلق وإذن

[فاستحيى من الله كما تستحيى رجلا جليلاً من قومك .]

وكما يستنكف الابن أن يكون لأبيه فيه شريك فإنه تعالى يستنكف أن يكون له شريك

أما بعد : فبم يتفاضل العابدون ؟

وبأى شئ تتفاضل مواطن العبادة

يقول العلماء :

يتفاضل العباد بالإخلاص :

ونذكر هنا ماقاله رائد من الرواد المخلصين :

لو استطعت لسترت عملى عن الملكين لفعلت !!

وفيما يتعلق بتفاضل مواطن العبادة : فكما قال علماؤنا :

تتفاضل :

ا - بطول الزمان

ب - وعظمة الباقى

جـ - ونبل المقاصد

وقد جمع الله تعالى ذلك كله للبيت الحرام . .

النافرون : خفافاً وثقالاً

يقول الله عز وجل :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ الحج « ٢٧ - ٢٨ »

كان على إبراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج . كما أمره ربه تعالى .. ليأتيه الناس : رجالاً .. وعلى كل ضامر .. كما وعده ربه تعالى.

ولقد استجاب « رجال» .. وفى لفظ « رجال » مايشى بالقوة والتحمل.. وهكذا تقول اللغة :

رَجَل : مشى راجلا .

ورجِل : قوى على المشى .

وفلان ذو رُجلة : أى قوة .

ويقال : كانت عائشة رضى الله عنها رجُلة الرأى .

وهذا سر من أسرار الإعجاز القرآنى . الذى يؤثر لفظاً على لفظ . وعبارة مكان عبارة .. لما فى اللفظ المختار .. والجملة المنتقاة . من أسرار تعين المتلقى على الالتزام بما يلقاه .

تأمل مثلاً قوله تعالى :

﴿ حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾

فالمراد بالجمل هنا هو : الحبل الغليظ .

ولو جاء النص هكذا : حتى يلج الحبل فى سم الخياط .. فربما توهم السامع إمكان أن يدخل الحبل فى سم الخياط .. ولو فى الخيال .. لكنه سبحانه وتعالى يعبر « بالجمل » لا « بالحبل » ليستقر المعنى المراد فى الذهن . وهو استحالة أن يدخل الكافر الجنة .. كاستحالة أن يدخل الجمل سم الخياط .. لأن الخيال لايتصور أبداً أن تنفذ هذه الجثة الضخمة من هذا الثقب الضئيل !

وكذلك الحال هنا :

فالراجل هو : الماشى .

لكن التعبير « بالراجل » عن الماشى .. يوحى بمعنى الرجولة الصابرة.. القادرة على عبور المفاوز .. والتى تحشد كل طاقاتها .. مدفوعة بطاقة من الشوق عارمة .. عازمة على الوصول إلى بيت الله العتيق .

آراء المفسرين :

يقول السهيلى :

«رجالاً » مقدم بالرتبة : لأن الذى يأتى راجلاً .. إنما يأتى من المكان القريب.

والذى يأتى على « الضامر » يأتى من المكان البعيد .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال مؤيداً هذا الرأى : وددت أنى حججت راجلاً .. لأن الله قدم الرجالة على الركبان فى القرآن .

فجعله ابن عباس من باب : تقدم الفاضل على المفضول .

وأضاف ابن القيم :

وفيه فائدة جليلة وهى :

أن الله عز وجل شرط فى الحج الاستطاعة . ولابد من السفر إليه لغالب الناس . فذكر نوعى الحج .. لقطع توهم من يظن أنه لايجب إلا على الراكب. وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتوكيداً .

ومن العلماء من يقول :

إنه قدم الراجلين .. لأن نفوس الركبان ربما استهانت بهم

فكأن الركبان يوبخونهم قائلين :

إن الله تعالى لم يكتب عليكم الحج .. ولم يرده منكم ، وربما اشتطوا فظنوا أن حجهم لن يقبل منهم .. فبدأ الله تعالى بذكر المشاة جبرا لخاطرهم . ورحمة بهم .

وربما جاز لنا أن نقول :

إن الله تعالى قدم الراجلين .. لأن سفرهم أشق من سفر الراكبين .

وإنما الثواب على قدر المشقة !

ولابأس أن ينضم إلى ذلك من جبر خاطرهم .. ردعاً لمن هون من أمرهم .. تماماً كما قدم الإناث فى الذكر على الذكور فى **قوله تعالى** :

﴿ **يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾

بمعنى: أنكم إذا وضعتم الإناث فى أدنى درجات السلم الاجتماعى . فإن خالقهن سبحانه يخلف ظنكم .. فيجعلهن طليعة الركب الميمون .

ولله در ابن عباس :

لقد كان يستعذب العذاب .. طمعاً فى مزيد من الثواب !! وعلى ضوء أمنيته تلك تدرك اليوم قيمة الإعلانات عن « الحج السريع » من قبل شركات تقول لك إغراء :

ادفع كثيراً .. فى سبيل حج مريح : خيام مكيفة .. وسفر قاصد . وعود حميد .. وسريع ؟!

ولابأس من الراحة سبيلاً إلى أداء المناسك بوعى بصير .. ولكننا فقط نذكر بنموذج من البشر يستشعر جلال العبادة ومافيها من « عذاب » هو أساساً مشتق من « العذوبة » التى يحسها الصابرون .. والتى لوعلمها المترفون .. لجالدوهم عليها بالسيوف !

هزال .. أم عزيمة الرجال

ثم يقول عز وجل ﴿ **وعلى كل ضامر** ﴾

وقد ذهب المفسرون إلى توكيد .. استجابة البشر للنداء .. فأتوا من الأصقاع البعيدة .. على جمال هزلت من طول ماعانت فى الطريق الطويل فصارت هزيلة .

لكننا نذكرهم بما نسوه وبما تعلمناه منهم وأخذناه عنهم وهو :

أنه « التضمير » وليس الهزال ! وكيف ؟

إن اللغة تقول : التضمير : أن يعلف الفرس حتى يسمن ..

ثم .. وبعد أربعين يوماً .. نرده إلى القوت .. إلى الكفاف .. وعندئذ يصير مضمراً : مفتول العضلات .

وإذن .. فالضامر هو : الفرس القوى .. المعد للسفر البعيد .. تماماً .. كماأعد الصديق رضى الله عنه راحلته قبيل الهجرة .لتكون أقدر على مغارم رحلة محفوفة بالخطر .

ويعنى ذلك أنه :

بمجرد أن أذن الخليل عليه السلام فى الناس بالحج .. انفجر فى النفوس شلال عارم من الشوق إلى البيت العتيق .. لاعلي بعير مهزول ..

وإنما على ظهور النجائب التى تقطع الطريق .. مهما كانت مخاطر الطريق .

إلى الآخرة .. عن طريق الدنيا

ثم يقول عز وجل : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله .. ﴾

لقد قدم تعالى منافع الدنيا .. على الذكر .. فلابأس أن تستمتع بطيبات الحياة .. وأنت فى طريقك إلى الآخرة .. والعابدون الأقوياء الأسوياء أقدر على مواصلة المسير .. أما الذين يحرمون طيبات أحلت لهم .. فلا أمل فى وصولهم .

رحلة الجسد .. ورحلة الأبد

يقول الله عز وجل :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (١)

تمهيد :

حين تخرج من بيتك إلى عملك فى مكان بعيد .. فإن السفر عندئذ قطعة من العذاب .

أما عندما تعود من عملك مرهقاً .. فالعذاب عندئذ قطعة من السفر !؟

وقد صار السفر اليوم عذاباً .. وإن تقدمت وسائله بل لقد صار فى حياة كثير من الناس عبثيا :

عند ابتدائه .. فلاغاية .

وأثناءه .. بلا آداب .

ثم نهاية .. بلاثمرة !!

سفر العذوبة :

وتنفرد رحلة الحج بأن عذابها .. مشتق من العذوبة ! !

(١) الحج الآية « ٢٧ . ٢٨ » .

لأنها : رحلة الفكر الذى لايعرف الخوف .. وحيث الرأس يرتفع كريما عالياً.. وحيث المعرفة حرة .

والعالم لايعرف التمزق والانغلاق .. داخل جدران ضيقة . وحيث تنطلق الكلمات من أعماق القلب .

وحيث الجهد الإنسانى المتواصل .. يمد ذراعيه من أجل الكمال .. وحيث نهر البلد الصافى .. لايضل طريقه فى رمال الصحراء .

وهاهو ذا الخليل عليه السلام يؤذن فى الناس .. داعياً إلى رحلة الأبد.. التى يشمون فيها عبير الجنة .. ويستروحون نعيمها .. فإذا الناس يأتون : مسرعين .

ومن كل بقاع الدنيا .

وعلى كل « ضامر » .. ضمر فكان قوياً .. يعكس الشوق العارم فى القلوب التى لم تخطط للرحلة « بالمسطرة » والقلم .. وإنما .. بمجرد سماع النداء فكانت كمن نشط من عقال .. تهوى .. تتدحرج .. تسابق الزمن .. إلي حيث استراد الآمال . ومحط الرجال ! تضحي بأثمن ماتملك ..

يتقاطر الناس على البيت من كل فج :

رجالا يسعون على أقدامهم .. أو ركبانا .. حتى ولو كانوا فى فج .. فى طريق بين جبلين .. ومافيه من وعورة وخطورة .. ولكن شحنة الشوق عارمة .. قوية لاتترك للمشتاق فرصة يتدبر فيها العواقب .. لقد تراجع قانون العقل .. اختفت المقدمات والنتائج .. ليبقى القلب سيد الموقف ..

فيندفع بصاحبه إلي حيث تهدأ الأشواق في البلد الأمين .

صورة من الماضى :

ومازلت أذكر ذلك الفلاح البسيط فى قريتى :

لقد كان لديه من المال مايغطى نفقات الحج .. لكنه صمم على أن يبيع قراريطه التى ورثها عن أبيه .. ثم يحج بثمنها ! لماذا؟

لقد شاهد والده الذى رحل .. يشق صدرها بفأسه .. ويرويها بحبات عرقه الذى امتزج بالماء الدافئ فى أخاديد الحقل ، ويعنى ذلك أنها حلال .. بلا شائبة فثمنها أليق برحلة يريدها أيضاً حلال وبلاشائبة .

وإذا كان هناك من حوله ناس يغسلون أموالهم ليحجوا .. فهم على ماقال الشاعر :

يحجون بالمال الذى يجمعونه ∴ حراماً .. إلى البيت العتيق المحرم

ويزعـم كل منهم أن ذنبـــه ∴ يحط .. ولكن : فوقــه فى جهنم

ولكن ذلك التقى الورع .. يعد للرحلة عدتها : مالاً حلالاً .. وقلباً صافياً .

فإن وافته أمنيته فبها .. وإلا فهو على مايقول الشاعر :

ياراحلين إلى البيت العتيق : لقد ∴ سرتم جسوما .. وسرنا نحن أرواحا

إنا قعدنا عـلى عـذر وعن قــدر ∴ ومن أقـــام عـلى عـذر فقد راحـا

إن قلبه يكاد أن ينفلت من صدره .. إلى حيث يشتاق .. ولقد سافر بقلبه إلى هناك فى رحلة الأبد .

عرفات وعبقرية الزمان والمكان

عندما قال الرجل معتذراً عن الجهاد : يارسول الله : إنى جبان .. وإني ضعيف .. قال له ﷺ :

عليك بجهاد لاشوكة فيه وهو : الحج

وإذا كان « الحج عرفة » فقد صارت عرفات ساحة جهاد مبرور يتوجه الله تعالى بمغفرته ذنوب زواره .. ثم إن صوم المسلمين من غير الحجاج .. يوسع الساحة لتشمل فجاج الأرض جميعا والتى تكون فى اليوم التاسع ميدان جهاد ينتظم المسلمين جميعاً .. ليشعر المسلم بهذا الوجود الهائل الممتد .. أنه لايعيش وحده .. وإنما هو جندى فى جيش قادر على أن يفرض إرادته على الحياة .. وأن يحبط كيد الشيطان الذى يهزم اليوم هزيمة ساحقة ماحقة ممن حيث حسرته البالغة .. إذ يغفر الله تعالى ذنوب عباده..

عبقرية الزمان .

وإذا كان يوم عرفة واحداً من « ليال عشر » هى أثمن مافى الزمان .. فإنه كان فى هذا التاج درته اليتيمة .. بما خصه الله تعالى من بركة .. حيث يغفر الله تعالى بصيامه : عاما مضي .. وعاماً يقبل .. إلى الحد الذى يوشك أن يكون كافراً من ظن أن الله سبحانه لم يغفر له ذنوبه .. ومن ظن بغيره كذلك !

إن « عرفات » .. لتمتد يده إلي الماضى .. لتمسح أوزار عام .. وإذن..

فلاكانت « عقدة الذنب » بعد هذا الغفران .. ثم تمتد الأخرى لتكنس أوزار عام مقبل .. وإذن .. فهو الأمل فى مستقبل واعد راشد .

مستقبل يربو فيه الأمل .. ويكثر العمل .. حين توشك أن تنفك عقدة اليأس من رحمة الله فى قلوب تتنزل عليها الرحمة .. فى هذه الساحة الرحبة .

ثم مايترتب على ذلك كله من إصرار على تلاقى الذنوب .. وإذا كان عاقبة الذين أساءوا : السوءى .. فإن جزاء الطهر طهرا يجئ نتيجة طبعية للإحساس بالنظافة ومايترتب عليه من إباء علي العصيان .. فى قابل الزمان.

عبقرية المكان :

وحتى لو بلغ الحجيج عشرات الملايين .. فسوف يسعهم عرفات !! تماماً كرحم الأم الذى يبدو ضيقاً .. لكنه يتسع مع الأيام .. اتساعاً يواكب نمو الجنين !!

أجل سوف يتسع لكل الآتين من كل فج عميق :

قال أهل اللغة :

(قول الناس : نزلنا عرفة .. شبيه بمولد وليس بعربى محض) .

إنه لايستقبل العرب فقط .. لأنه فى ديار العرب .. ولكنه يستقبل كل الأجناس .

لقد ذابت فيه العروبة .. ذابت فى كل الأجناس .. فصار الناس هناك أمة واحدة بقلب واحد .. فإذا عادوا من عرفات .. وتفرقوا فى البلاد كانوا جميعاً على هذا العهد الواحد إنه شئ عجيب فى التراكيب يحقق الله تعالى به معنى الوحدة التي تستهدفها من فريضة الحج :

فهو اسم جمع .. ولايجمع .. أى أنه دال على .. الجمع .. على الوحدة وليس بحاجة إلى صيغة بعده تؤكد ذلك !! ثم هو : لاواحد له من لفظه فهو مصمت لاخلل فيه ولاينحل إلى مفردات .. ليبقى بصيغته علما على الوحدة والثبات .. وذلك مغزى موقف عرفات !

ولاحظ من خصوبته أن اشتقاقه :

من المعرفة .. والمعرفة انكشاف ووضوح .

ومن التعارف .. والتعارف ائتلاف وتعاون .

ومن العرف .. والعرف رائحة جميلة .

وقد يكون من الاعتراف .. والاعتراف يعنى : الشجاعة الأدبية .

وهكذا كان آدم وحواء .. عندما التقيا فى عرفات .. فكان من دعائهما:

ربنا إننا ظلمنا أنفسنا

وهكذا يستشعر الحاج .. ونحن هنا معه يستشعر هذه المنظومة من القيم التى تجعل الوقوف بعرفة هو الحج فعلاً .

لأن هذه القيم هى نسيج الأمة التى لاوجود لها إلا بها .. والتى تتسلح بها اليوم .. وإن شئت قلت : والتى تتهيأ بها اليوم ليؤذن لها بالدخول فى بيت ملك الملوك سبحانه وتعالى .

أما بعد :

فإن المؤمنين ليسوا « كعباد الشمس » : يتجهون فقط إلى حيث تكون مصالحهم .

ولكنهم اليوم « عباد » لله عز وجل :

يتقاطرون .. ومن كل فج عميق .. بالطائرات .. والسفن .. مجددين العهد أن يظلوا أوفياء .

وفى عرفات سينظر الله تعالى إليهم .

شريطة أن يكونوا قد حققوا بالتوحيد وحدتهم . .

ثم جددوا ذكريات عزازا . . هى فى الواقع قيم عليا نحن محتاجون إليها :

تحدى إبراهيم عليه السلام للنمروذ .

تضحية اسماعيل عليه السلام

اصطبار هاجر .

وعلى الحجيج أن يرتفع إلى مستوى الموقف العظيم :

إغاظة للشيطان وتدعيما للإيمان . إنها « عرفة » : البوتقة التى يخرج منها الحجيج ذهبا خالصاً .

ثم هى الضربة القاضية على كل حركة انفصالية . كحركة من ترك عرفات .. ووقف بالمزدلفة .. حتى يعود الحجيج بقلب واحد .. وإرادة واحدة.

مسافرون من وطن الأكوان

يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران « ٩٦ – ٩٧ »

من بين ماتعيه الذاكرة من دروس العابدين :

أن الناس منذ خلقوا . لم يزالوا مسافرين . وليس لهم أن يحطوا رحالهم إلا فى الجنة أو فى النار .

ومادام الإنسان على سفر .. فلن يطلب هنا لذة ولانعيما .. لأن ذلك لايكون إلا بعد انتهاء السفر .. هناك فى روضات الجنات . الإنسان إذن فى عناء موصول . فإذا نزل منزلاً .. أو نام لحظة فاستراح .. فهو على قدم الاستعداد للسير من جديد .

وإذا كان هذا حال الناس بعامة .. فإن المسلم – دونهم – يأخذ حظه الأوفى من هذا العناء . على قدر مسئوليته .

وذلك بعض مايشير إليه قوله تعالي :

﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ الشرح « ٧»

إن بال المسلم مشغول بمهمته الكبرى دائما .. فلافراغ عنده أبداً ..

فلاينتهى من مرحلة إلا لتسلمه إلى أخرى .

لكن هذا التعب وهذا النصب .. ليس « علينا » وإنما هو « لنا » كما يشير قوله تعالى :

﴿ **قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا** ﴾

فلم يقل تعالى ﴿ **ماكتب علينا** ﴾ .. وذلك عزاؤنا .. لأن ذلك يعنى أن مانلاقيه عبر الرحلة الطويلة .. لاينصب علينا ليقيد خطانا .. وإنما هو «لنا».. لحسابنا .. يصقل ذواتنا لتخرج من التجربة أنصع جوهرا . وأحد بصرا .

خير زاد :

وإذا كان لكل رحلة زاد .. فخير الزاد التقوى .. والتى تمنحك الطاقة الدافعة حتى تواصل المسير .

والتقوى أثر من آثار العبادة .. وإذا أحس الإنسان بوجوده ضئيلاً هزيلاً .. فإن المسلم .. بالعبادة يحس بوجوده عريضاً عميقاً طويلاً .. يملأ الأفق .

فهو بالصلاة .. والزكاة والصوم .. يخرج من عزلته .. فإذا هو عضو فى جماعة يمتد بها وجوده .. وتتسع معها حركته .

أهمية الحج :

ودون هذه العبادات جميعاً يأخذ الحج موقعه المتميز بين العبادات جميعاً . وهذا ماتشير إليه الآية الكريمة بنظمها الفريد :

١- فالحج فريضة « لله » تعالى وحده دون سواه كما يفيد تقديم اسم الجلالة « لله » .

٢- ثم هو دين لازم على امتداد الأمصار والأعصار .. غير قابل للترخيص.. كما يفيد التعبير بحرف الاستعلاء (على الناس) : إن القضية هنا لاتقبل المناقشة .. فالله سبحانه وتعالى هو خالق الناس .. وهو رازقهم.. وإذن .. فحين يدعوهم سبحانه لزيارة بيته .. فلايمكن لمستطيع أن يتردد لحظة واحدة في الاستجابة طائعاً بل مشوقاً .

وحتى إذا لم تسعفه إمكاناته .. فإنه يطير إلى البيت علي جناحين من الشوق .. إلى هناك .

حدود الاستطاعة :

وتتلخص حدود الاستطاعة فيما يلي :

أ- توفر نفقات الحج .

ب- واحتياجات الأسرة .

جـ- واستتباب الأمن .

د- ثم توفر الطاقة الجسيمة .

فإذا تيسرت مقومات الاستطاعة . فقد بدأت الخطوة التالية على الطريق الطويل وهى : تفريغ القلب من شواغل الدنيا .. ذلك بأن الإنسان فى بيئته محكوم بشبكة من العلاقات الاجتماعية .. وعليه - وقبل الرحيل - أن ينقى هذه العلاقات من كل شائبة : يطلب العفو ممن أساء إليه .. ثم يرد الأمانات إلى أهلها . حتى يعد قلبه لتلقى الفيوضات .. فى مكان من الأرض هو أقرب الأمكنة إلى السماء .

إن هموم الحياة قيود : تعقل العقل . ولاتسمح برأى .. وعلى الحاج أن يتخلص منها أولاً .. حتى إذا وصل إلى الأرض الطاهرة . كان على مستواها نقاء وصفاء .. وإذا هو فى مساقط الغيث : مقبول الدعاء .. بعدما سلمت القاعدة التى انطلق منها ذلك الدعاء : بالكلم الطيب . والعلم الصالح

من عناصر البلاغة فى الآية الكريمة :

أفاض المفسرون فى بيان الآية الكريمة ومافيها من إعجاز وإيجاز من شأنه أن يحمل المسلم على اتخاذ قرار الحج وهو راض بما يصنع :

وقد تتبعت هذا البيان .. وبخاصة لدى « ابن القيم » و « الفخر الرازى » فتلخص لى من بلاغتها مايلى :

١- (ولله ..)

فبحكم كونه سبحانه وتعالى إلها .. ألزم عباده الحج . وإذن .. فقد وجب الامتثال : عرفوا الحكمة . أم لم يعرفوا فالأمر أولاً وأخيراً لله تعالى ..

كما يشير حرف « اللام » « لله » بالإضافة إلى التحذير من عصيانه تعالى.. لأن من عصى المخلوق . ليس كمن عصى الخالق القادر على الانتقام .

٢- إن الحج واجب .. وعلى طريق الإلزام .. وعلى الناس جميعاً .. ومن شأن الإحساس بعموم المسئولية أن يحمل على الطاعة .. تقديراً لأمر لايفلت من قبضته أحد .

٣- ثم نلاحظ مافى الآية من تكرار يشير إلى أهمية الفريضة :

أ- فقد ذكرت الآية أولاً : « على الناس »

ب- ثم أبدلت منه « من استطاع »

وفيه إلى جانب التكرار : أنه إجمال وتفصيل :

يثير شوق النفس بالإجمال أولاً .. ثم يأتى عقبه بالتفصيل .

٤- ثم ذكر سبحانه وتعالى « سبيلا» منكرا .. بمعنى : أى سبيل : سواء كان مالا سائلا أو قوتاً .. وكل مايسمى سبيلاً يصل بالمسلم إلى مايريد.

٥- قال تعالى « ومن كفر » بدل « ومن لم يحج » وهو تهديد وتغليظ .. يقف بالمستطيع المعرض عن الحج على حافة الكفر .. إن لم يكن سقط فى حفرته فعلاً !

٦- إيثار مادة « الاستغناء » على لفظ « التهديد » أدخل فى باب البلاغة وأعمق فى ردع المتردد ليحسم أمره .

٧- ولاحظ إلى أى حد يبلغ التهديد مداه .. حين تعلم أنه تعالى غنى عن العالمين جميعاً .. فما بالك بهذا المخلوق الضعيف ؟

وفى النهاية يبدو التهديد نعمة بماينشئه من إيقاظ الغافل .. وتنشيط الخامل.

عودة إلى ابن قيم الجوزية :

قد يقف الدارس الناشئ أمام تحليل ابن القيم حائراً .. من حيث يصعب عليه التحليق مع ابن قيم الجوزية فى أفقه العالى .

فمعانيه هنا غزيرة .. والتعبير عنها موجز .. وإذن فلابد من واسطة بين الدارس وبين هذا البحر المديد .. ليصل الدارس إلى مالدى ابن قيم الجوزية من علم غزير وعائد وفير .

وهذا ماحاولته هنا :

فقد رجعت إلى « بدائع الفوائد » .. ثم حاولت توضيح ماغمض من تعبيرات الشيخ .. وما دق من معانيه .. فى محاولة تأخذ بيد طالب العلم إلى مايريد.. ومانريد له :

من فقه الآية الكريمة :

في الآية الكريمة مبتدأ هو : « حج البيت »

فأين الخبر ؟

معنا في الآية الكريمة مجروران .. هما : « لله » و « على الناس »

فأيهما الخبر ؟

اختار العلماء أن يكون الخبر هو « على الناس »

لأن الحكم هنا هو : وجوب الحج .. والوجوب يقتضى « على » فهي المناسبة له .

وإذا جاز نحوياً أن يكون قوله تعالى « ولله » خبراً .. فإن الأول أولى.. لأن دلالته على معنى « الوجوب » مطابقية .. ودلالة « لله » لزومية .

والمطابقية أولى .

سؤال :

وهنا سؤال :

لم قدم قوله تعالى « ولله » .. على الخبر وهو « على الناس »

والجواب :

١- تقديم المجرور هنا .. تفرضه ضرورة أن تكون الأمور مرتبة بحسب الوقائع .. هكذا :

أولاً : الموجب للفرض .. وهو الله تعالى .. فبدئ بذكره .

وثانياً : المفترض عليه وهو : الناس .

وثالثاً : الواجب وهو : الحج [1]

٢- أن الاسم هنا لما كان هو « الله » تعالى .. فقد وجب تقديمه : تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذى أوجبه .

ثم هو تخويف من تضييعه أو إهماله .. إذ ليس ماأوجبه الله عز وجل بمثابة ماأوجبه غيره .

بمعنى : أن وجود لفظ الجلالة على رأس الجملة من شأنه تربية المهابة فى نفس المتلقى . حتى يأخذ الأمر مأخذ الجد .

(موقع مَنْ)

وقد أثارت « مَنْ » فى قوله تعالى « من استطاع » أثارت خلافاً علمياً:

فقد ذهب بعض النحويين إلى أنها فاعل المصدر « حج » ويكون المعنى على ذلك :

أن يحج البيت من استطاع .

ولكن بعض النحويين يقولون :

إن « من » بدل بعض من كل .. ثم راح ينتصر لرأيه بادئاً بتضعيف

(١) راجع بدائع الفوائد ج/٢/٤٢ ومابعدها .

رأى من قال بفاعليتها للمصدر .. فقالوا :

لو كان معنى الآية ماذكر .. وكانت « من » فاعلاً .. لفهم من ذلك أن الحج فرض كفاية .. مع أنه فرض عين .. لأنه – وعلى هذا الرأى – إذا حج المستطيعون .. فقد برئت ذمم غيرهم .. لأن المعنى يصير هكذا .

ولله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم .. فإذا أدى المستطيعون الواجب .. لم يبق واجباً على غير المستطيعين .. مع أن الأمر ليس كذلك : بل الحج فرض عين على كل أحد : حج المستطيعون .. أوقعدوا .. ولكن الله تعالى عذر غير المستطيع .. بعجزه عن أداء الواجب .. فلايؤاخذه به .. ولايطالبه بأدائه . فإذا حج .. أسقط الفرض عن نفسه .

وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين .

إيضاح :

ويمكن أن نزيد الأمر إيضاحاً بهذا المثال :

لوقلت :

« واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم : الطائفة المستطيعة للجهاد » . فإذا جاهدت هذه الطائفة .. انقطع تعلق الوجوب عن غيرهم .

أما إذا قلت :

« واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع »

كان الوجوب متعلقاً بالجميع .. وعذر العاجز بعجزه . فالحج ابتداء .. واجب عينى على كل فرد .على أن ينهض به فقط المستطيع .. أما من لم يستطع .. فالحج واجب عليه .. ولكن مع إيقاف التنفيذ !! إن صح التعبير فإذا استطاع من بعد .. فهو مطالب به .

ولهذا السبب لم تجئ الآية هكذا : (ولله حج البيت على المستطيعين) وإنما جاءت كما هى فى المصحف الشريف :

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾

تثبت أن الحج : فرض عين .. ولكن لايباشره إلا المستطيع . أما غير المستطيع فقد برئ من العقاب .. لعجزه .. وليس لأن المستطيع ناب عنه فى أداء الفريضة التى ماتزال معلقة فى عنقه .. حتى يستطيع .

من أسرار الآية الكريمة :

يلاحظ : أنه تعالى إذا ذكر مايوجبه . أو يحرمه .. يذكره تعالي بلفظ : الأمر والنهى . وهو الأكثر .

أو بلفظ « الإيجاب » و « الكتابة » و « التحريم » نحو :

كتب عليكم الصيام

حرمت عليكم الميتة

ولكنه سبحانه وتعالى .. وفى الحج .. أتى بنظم الآية الكريمة على

النحو الذى جاءت به .. والذى يدل علي تأكد الوجوب من عشرة أوجه :

قدم اسمه عز وجل ..

أدخل عليه لام الاستحقاق .. وهى تفيد أيضاً : الاختصاص .

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم ..

ثم أدخل عليها حرف « على » ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ..

ثم نكر السبيل .

والذى جاء فى سياق الشرط .. إيذانا : بأنه يجب الحج على أى سبيل تيسرت : من قوت أو مال .

فعلق الوجوب بحصول مايسمى « سبيلا »

ثم أتبع ذلك كله :

بأعظم التهديد وهو : الكفر . فقال « ومن كفر » أى من ترك هذا الواجب .. ثم أكد هذا الوعيد بما يلى :

أخبر عز وجل بأنه مستغن عن العالمين فهو تعالى : الغنى الحميد .. ولاحاجة به - سبحانه - إلى حج أحد .

ولكن التنصيص على استغنائه سبحانه عنه : إعلام بمقته له . وسخطه عليه . وإعراضه بوجهه الكريم عنه .

ثم لم يقل سبحانه : فإن الله غنى عنه .. وإنما هو غنى عن العالمين .. كل العالمين .. بما فيهم ذلك الذى لم يحج مع استطاعته .. إنه تلك الذرة التائهة فى هذا الملكوت العظيم .. ولله الغنى الكامل التام .. ومن كل وجه .. عن كل أحد . وبكل اعتبار .

ثم أكد ذلك كله بالأداه (إنّ) الدالة على التوكيد .

من صور التوكيد :

وهناك فى الآية الكريمة – من صور التوكيد – وهو إبدال « مَنْ » من الناس .. وفى البدل : ذكر الإسناد مرتين : مرة بالإسناد إلى عموم الناس.. ثم مرة ثانية إلى خصوص المستطيعين . وهذا من فوائد البدل . الذى يقوى به المعنى بتكرار الإسناد . فكأنك كررت العامل وأعدته .. فتأكد المعنى.

فإذا قلت : أقسم بالله أبو حفص عمر .. ثم جعلت عمر بدلا .. كان المعنى :

أقسم أبو حفص .. أقسم عمر .. فقد كررت القسم .. وهو أبلغ مما لوجعلت عمر عطف « بيان » :

فإن العامل فى هذه الحالة كما هو .. ولم يزد بالتكرار رسوخاً . وهو مايحدث فيما لو كان بدلاً .

من دروس التربية :

فى الآية الكريمة : إيضاح .. بعد الإبهام . وتفصيل بعد الإجمال :

فقد ذكر سبحانه أولاً : على الناس .. إجمالاً .. ثم فصل ذلك ووضحه بقوله تعالى : من استطاع .. وتلك حاجة من حاجات النفس الإنسانية .. والتى يجمل بنا أن نحسن التعامل معها .. ليسلس قيادها فى أيدينا .. لوأننا نجحنا فى إثارة شوقها إلى المعرفة بالإبهام . ثم بالبيان .. وبالإجمالى .. ثم بالتفصيل .. لتستقر الحقائق .. ثم تستمر ثم إنه كما يقول المؤلف :

إيراد الكلام فى صورتين .. ثم إلباسه حلتين .. اعتناء به .. وتأكيداً لشأنه .. ثم تثبيتاً له فى قلب المتلقى بهذا التلوين وهذا التنوع .

من دروس الدعوة :

ومن دروس الدعوة هنا :

أن تعين المتلقى على الالتزام بما تدعوه إليه .. لاسيما إذا كان شاقاً على النفس ..

نفهم ذلك من **قوله تعالى** قبل ذلك :

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .. ﴾

فقد وصفه بخمس صفات :

أحدها : أنه أسبق بيوت العالم وضع فى الأرض .

والثانى : أنه مبارك : والبركة كثرة الخير ودوامه .

وليس فى بيوت العالم أبرك منه . ولاأكثر خيراً . ولاأدوم ولاأنفع للخلائق .

الثالث : أنه هدى .. ووصفه بالمصدر نفسه (هدى) مبالغة . حتى كأنه هو نفس الهدى .

الرابع : ماتضمنه من الآيات البينات التى تزيد على أربعين آية .

الخامس : الأمن لداخله .

وفى وصفه بهذه الصفات . دون إيجاب قصده . مايبعث النفوس على حجه .. وإن شطت بالزائرين الديار . وتناءت بهم الأقطار .

ونقول :

وفى ذكر مكة بلفظ « بكة » مايشير إلى أن مكة .. ومن فيها .. داخلون فى حماية رب البيت سبحانه .. والذى يبك أو يدق أعناق كل جبار أرادها بسوء .. ممايزيد الإحساس بالأمان إلى درجة التشبع .

القلوب تهفو :

ثم كان الشرف الأعظم فى إضافة البيت إليه سبحانه وتعالى (وطهر بيتى)

يقول ابن قيم الجوزية فى نفس المكان : وكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً . وهذه الإضافة هى التى أقبلت بقلوب العالمين إليه . وسلبت نفوسهم: حياله . وشوقاً إلى رؤيته . فهو المثابة للمحبين :

يثوبون إليه . ولايقضون منه وطرا أبداً :

كلما ازدادوا له زيارة .. ازدادوا له حباً .. وإليه اشتياقا : فلا الوصال يشفيهم .. ولاالبعاد يسليهم.

وصدق الشاعر القائل :

أطوف به والنفس بعد مشوقة ∴ إليه .. وهل بعد الطواف تدانى

وألثم منه الركن أطلب برد ما ∴ بقلبى .. من شوق ومن هيمان

فوالله مازداد إلا صبابة ∴ والقلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى .. ويا غاية المنى ∴ ويامنيتى من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ∴ إليك .. فمالى بالبعاد يدان

وماكان صدى عنك صد ملالة ∴ ولى شاهد من مقلتى ولسانى

دعوت اصطبارى عنك بعدك والبكا ∴ فلبى البكا ... والصبر عنك عصانى

وقد زعموا أن المحب إذ نأى ∴ سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كن هذا الزعم حقا .. لكان ذا ∴ دواء الهوى فى الناس كل أوان

بلى : إنه يبلـى التصبر والهـوى ∴ عـلى حـاله .. لم يبلـه الملـوان

وهذا محب : قاده الشوق والهوى ∴ بغير زمـام قـائد وعنـان

أتـاك على بعد المزور .. ولو ونت ∴ مطيته .. جـاءت به القدمـان

فرصة العمر :

وقبل أن تتفلت من بين أيدينا فرصة النجاة .. يمن علينا تعالى بصيام شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .. إنه الربيع الذى يغذى الأرواح.. وبه تزداد القلوب إيماناً واطمئناناً .

وإذا كان عشاق الدنيا ينظرون إلى خيوط الفجر .. فإذا هى فى حسهم سراب .. فإن الصائمين يوقنون بأن الفجر على الأبواب . ومن ثم يستبشرون ويستعدون للإقلاع . فإذا هم واصلون :

ذلك بأن الوصول إلى المأمول متحقق فى رمضان بالذات : لماذا ؟

١- لقد قيد الله تعالى فيه الشياطين .. فلاعوائق .

٢- ثم وعدك فيه بمغفرة يمحو بها تعالى ذنوبك (أوسطه مغفرة) .

٣- وبهذا يتاح لك مالايتاح فى شهر غيره .. حيث يرق قلبك .. نافضاً عنه صدأ الشهوات .. لينبعث منه نور كاشف : ترى به الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام : بين الصالح والطالح .. لتصبح من بعد محكوماً بالمبادئ لابالمصالح .. فمصلحتك الكبرى .. فى الصلح مع ربك سبحانه وتعالى .. وقد كان رمضان تلك الفرصة السانحة

ولقد تكون فقيراً معدماً .. وقد ترى من يمشى بين يديك مختالاً فخوراً بما يملك من مال ومتاع .. ويكفيك عزاء أنك فى رمضان صرت حراً لوجه الله .. من حيث صارت إرادتك حرة طليقة .. وماأعظمها من ثروة باقية .. وإذا كنت لاتملك شيئاً من حطام الدنيا .. فيكفيك شرفاً وتيها .. أن شيئاً فى الدنيا لايملك !!

وإذا كان هناك من المترفين من ينظر إليك .. ولايراك . ومن يسمعك .. لكنه لايستمع إليك .. فإن الله تعالى حسبك .. وهو ناظر إليك .. رحيم بك .. غفار لك .. وكفى بهذا الشرف غنى وجاها .. أثقل فى ميزانك مما طلعت عليه الشمس .

وفى سليمان عليه السلام عبرة : لقد كانت المغفرة أمله الكبير .. ولئن كان من حقه أن يستمتع بمباهج الدنيا .. فإن ذلك لايغنى فتيلاً عن مغفرة كانت أمله الأكبر وهو مارجاه من مولاه .. فى اللحظة التى طلب فيها مناعم الحياة .

يقول عز وجل على لسانه :

﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾[1]

إنه يجعل من الاستغفار بابا إلى الرخاء والازدهار . وإن ملكا عريضا

(١) ص : ٣٥ .

بلامغفرة .. لهو البلاء المبين .

وإن مغفرة يعود بها المسلم من رحلته الكادحة لهى أثقل فى ميزان حسناته من كل متاع .

وقد ترى فى دنيا الناس رجلاً : كان نجماً لامعاً .. نجماً فى سماء الزمان :

في سماء السياسة .. أو الاقتصاد .. أو الاجتماع .. ولكنه فى سماء الخير .. صفر على الشمال .. إن أجهزة الإعلام .. لتتغنى باسمه .. وتنوه بشمائله .. لكنه ساقط فى الاختبار العملى .. ممزق القلب .. حين تتنازعه آلهة المادة التى صار عمره معها بددا . فى الوقت الذى صار المتقى فيه موحداً متوحداً .. يرجو حبيبا واحدا .. فهو به فى غناء .. ناجياً من كل عناء .. ولعله ذلك الذى عناه « ابن الفارض » :

يانسيم الريح قولى للرشا :

لى حبيب : حبه وسط الحشا

لو يشأ يمشى على خدى .. مشى

روحه روحى وروحى روحه

إن يشأ شئت .. وإن شئت يشا !

باب الوصول :

ولقد كان الرجل الصالح يحاول الوصول .. فكان يصلى .. وكان يحج.. فلعله أن يسمح له بالدخول من باب الصلاة .. أو باب الحج أو من باب الزكاة .

ولكنه يجد الطابور بين يديه طويلاً .. ومن ثم .. قرر أن يكثر الأستغفار .. من حيث كان باب الاستغفار أوسع الأبواب إلى مرضاته تعالى.. وهكذا تعلمنا من سليمان عليه السلام .

بعد المشرقين :

وقد كانت المسافة الفاصلة بين المتقين .. والجاحدين واسعة شاسعة .

فبينما يجأر المتقون بالدعاء والرجاء .. أن يثبتهم الله تعالى على طريق الصفاء .. إذا أنت فى مواجهة قوم يمدون أيديهم فى محاولة لإغلاق باب الدعاء والرجاء .. فيما يشبه المحادة لله تعالى .

ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل :

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (1)

ولكن محمداً ﷺ لن يمطرهم بالحجارة أبدا .. لأنه هو الرحمة المهداة.. والنعمة المسداة .. وخطته المثلى فى الرد على من عاداه هى :

---

(1) الأنفال : « ٣٢» .

أن يطيع الله تعالى .. فيمن عصاه سبحانه فيه . ذلك بأن الرسولﷺ لم يرسله ربه تعالى .. مصيطراً عليهم .. ولامعذبا لهم .. ثم هو من دمهم ولحمهم .

ومع هذا فسنة الله الماضية ألايعذبهم سبحانه مادام الرسول فيهم كشأن الأنبياء جميعاً .

وتلك واحدة من خصائص المتقين :

وهى : أنهم لايحقدون .. ولاينتقمون .. وعلى ربهم يتوكلون .

وقد تسول لهم أنفسهم يوماً أن يكون ردهم عنيفاً . ولكن ليكون سبيلاً إلى إيقاظهم ليظلوا بالحكمة مستبصرين :

قال معاوية رضى الله عنه لرجل من اليمن : ماكان أجهل قومك حين ولوا عليهم امرأة .. فرد اليمنى على الفور :

قومك أجهل من قومى .. فهم الدين قيل عنهم :

(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا .. فاهدنا إليه .

ولقد كان الدرس قاسياً .. ولكنه عاد بمعاوية رضي الله عنه إلى الحق المبين .. وكان ذلك فى نفس الوقت درساً لبعض المتحمسين اليوم .. والذين يزين لهم الحماس أنهم دون الناس جميعاً .. على الحق .. فيتسرعون .. ثم

يندمون .

وتفرض عليهم الدعوة أن يكون عقلهم أمام لسانهم .. ليكون المنطق صواباً .. وليصير الرد عتاباً .. لاعقاباً .

الإعلام الاسلامى

فى

مواجهة الاعلام المادى

من خلال مشاعر الحج :

يقول الشاعر العربى :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ∴ إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

إنها قصة الصراع بين القيم المادية والقيم الروحية :

الاتجاة المادى فى الحياة يستهدف إغراق الإنسان فى متع حسية تنسيه دوره الرئيس فى الحياة بمقدار ما ينمى فيه مشاعر الأنانية فلا يهتم إلا بذاته . وبعد ها فليكن الطوفان . وتلك نقطة الخلاف بين القديم والجديد :

بين القيم التى تخاطب العقل .. وتلك التى تتملق العاطفة بين «مقرر » مفروض عليك استيعابه وإستذكاره ... لتمتحن فيه .

وبين الصور الملونة .. والتى توافيك ساعة فراغك ولن تكون مادة تمتحن فيها ... بين علوم قيمة ... تنتزعك من مخدعك . وبلا استئذان .

إنها قصة المربى الذى يغرس فى قلبك أصول الأخلاق . ورجل الدنيا الذى يهدد هذه الاصول . حين يلهى تلك القلوب عن ذكر الله تعالى بما يبدده من طاقة معدة أساسا للنهوض بالإنسان فى معركة لا ينتصر فيها

إلا الأقوياء

الحج قبل الاسلام وبعده :

وفي قصة الحج على مدار الزمان نموذج لهذا الصراع الذى انتهى أخيرا لصالح الانسان فى ظل الاسلام . ولكن ... كيف؟

• لقد كانت للعرب تجاوزات وصور سموها حجا ... وليست من الحج فى شىء :

١ - كانوا يجتمعون فى مواسم الحج فى مظاهرات إعلامية يتسابق فيها الشعراء يفاخر كل شاعر أو خطيب بأمجاد قبيلته . وكان الشاعر او الخطيب يمثل صحيفة بمنطق العصر - تدافع عن الحزب بالحق وبالباطل.

٢ - وكان شيوخ القبائل يتنافسون في ذبح النوق ...وايهم يذبح اكثر يذكره الركبان .. إلى جانب أنهم كانوا إذا ذبحوا القرابين لطخوا الكعبة بدمائها قربى الى الله تعالى .

وعلى دقات الطبول .. والغناء والرقص .. يسهرون الليل فى مجالس خالية من ذكر الله .

٣ - كان الرجال والنساء يطوفون بالبيت عرايا بلا حياء ..وربما فلسفوا ذلك التصرف الآثم قائلين : هكذا ولدتنا أمهاتنا ... وسوف نذهب الى الله كذلك .

٤ - وحتى إذا ذكروا الله تعالى ذكروه مع شريكه - تعالى الله عما يقولون- كانوا يقولون "لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك . تملكه وملك"

٥ - استهتروا بالشهر الحرم فكان النسيء زيادة في الكفر .

موقف قريش :

وكانت لقريش مواقف خاصة في مواسم الحج .. تتسم بالتعصب وضيق الأفق الى الحد الذى يشكل عدوانا علي شعائر الله تعالى فى الحج "فقد وقفت مع حلفائها موقفا خاصا فى المزدلفة لا يجاوزها إلى عرفات .

وكانت لهم من ناحية أخرى مظاهر إعلامية يتحدثون فيها عن الآباء والأجداد وما كانوا يتقلبون فيه من النعيم.

روي ابن عباس : أن العرب كانوا عند الفراغ من حجتهم بعد أيام التشريق يقفون بين مسجد منى والجبل ، ويذكر كل واحد منهم فضل آبائه وأجداده .

وربما قال أحدهم : اللهم إن أبى كان عظيم القبة ... عظيم الجفنة . كثير المال فأعطنى مثلما أعطيته فلا يذكر غير ابيه.

واذا ما دعا احدهم قال : اللهم اجعله عام غيث ... وعام خصب . وعام ولاد حسن .

لا يذكر من أمر الآخرة شيئا وكان المشرك يدعو فيقول .. اسقنا المطر واعطنا على عدوك الظفر .

ملامح الإعلام المادى:

واذا رحنا نتامل هذة المظاهر الخداعة. بدت لنا ملامح الاعلام الذى يجعل المادة غاية ووسيلة .. مستدبرا قيم الايمان العاصم من الزلل ومن هذة الملامح :

١ – الاعتزاز بالقديم .. لمجرد انه قديم .

٢ – التعصب للجنس .. أو الوطن .

٣ – تحكم القوى العابثة فى مصادر الناس.

٤ – التطلع الى مزيد من المتعة الحسية.

٥ – الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وقيم الإيمان.

٦ – محاولة كل فريق أو تجمع إثبات وجوده .. ولو على حساب الاخرين بل إنه أولى بالحياة من الاخرين.

٧ – وفى غمرة هذا التنافس يزداد الإنسان التمزق ... ومن خلال هذه المفاخر الطائشة ومن وراء دوافعها الحادة ...يزداد الإنسان طلبا لمتع الحياة كلما زادتة فتونا .

خطورة الاعلام المادى:

من أهداف الإعلام المادى محاولة اختراق الأسوار والتأثير فى قلوب المجتمع الاسلامى .. التى يمكن أن يستجيب له على الأقل فى فترة من زمان.

فقد ذكر البيضاوى أن المشركين لما لطخوا الكعبة بدماء الذبائح هم المسلمون بتقليدهم فنزل قوله تعالى :

﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوي منكم ﴾

وفى مواسم الحج مر أبو بكر رضى الله عنه على جماعة من حلفاء قريش فقالوا له: إلى اين وهذا مقام آبائك وأجدادك فلا تذهب فلم يلتفت إليهم ومضى بأمر الله تعالى إلى عرفات ووقفت بها وأمر سائر الناس بالوقوف بها دون المزدلفة التى جعلتها قريش موقفا لها تعسفا وجهلا .

ولئن استمسك أبو بكر بالحق فإن أخوة له فى الاسلام وقعوا فى الشرك المنصوب بعد ان أكرمهم الله تعالى بالاسلام .

«تكاثر» بنو حارثة وبنو الحارث من الانتصار فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان .ابن فلان؟

وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخرا بالحياء

ثم قالوا: انطلقوا بنا إلي القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم

مثل فلان .. يشيرون الى القبور.

وفعل الاخرون مثل ذلك.

فأنزل الله تعالى :﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾

وقد تكرر الموقف فيما يشبه ما تفعله أجهزة إعلام مغرضة تردد مثل ما قال الأولون افتخارا وبطرا.

فكل دولة لا سيما الدول الكبرى تسلط أجهزتها فى حملات إعلامية ضارية تحاول بها تخدير أمم الاسلام بما تشيعه عن قوتها. ومخترعاتها وأبطالها.

تماما كما قال آباؤها الأولون فى معرض التكاثر.

نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا. وأعظم نفرا . وأكثر قائدا .

القرآن فى مواجهة الإعلام المزيف :

القرآن بصفه عامة يوجه الأنظار الى موسم الحج فرصة ذهبية يتزود فيها المسلم بالقيم الأصيلة التى لا رقى للأمم إلا بها ولا كرامة للإنسان إلا فى ظلها .

ولقد شهد الأعداء فعلا بأهمية هذا التجمع المبارك.

وظهر ذلك جليا فى العام الذى حج فيه رسول الله ﷺ من حيث كان عيدا للأمة ينبغى أن تذكر فيه نعمة إكمال الدين وإتمام النعمة.

جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

يا أمير المؤمنين .. إنكم تقرأون آية فى كتابكم .. لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا.

قال: وأى آية اليوم هى؟

قال: **قوله تعالى**:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ المائدة «٣» .

فقال عمر: والله إنى أعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها علي رسول الله ﷺ : عشية عرفة فى يوم جمعة.

من خصائص الاعلام الاسلامى :

وقد نزلت الآيات الكريمة مفندة مواقف القوم .. مصححة مفهوم الحج ..كاشفة فى نفس الوقت عن ما يصنع المبطلون :

ففيما يتعلق بالتفاخر بالذبح :

فقد شددت الآيات الكريمة الحملة على ما كانوا يذبحونه أو ينفقونه تفاخرا .. وذلك **قوله سبحانه** :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ الحج «٣٦ - ٣٨ »

فالإبل من شعائر دينه سبحانه وتعالى التى جعل لكم فيها منافع دينية ومنافع دنيوية ولا قيمة لذبحها إلا إذا ذكرتم الله عنده فقلتم :

«الله اكبر . لا إله الا الله . والله أكبر اللهم منك وإليك .» فاذكروا الله تعالى عند ذبحها وهن صافات قد صففن أيديهن وأرجلهن".

فإذا سقطت على الارض مذبوحة فكلوا منها وأطعموا القانع الراضى بما يأخذه دون مسألة وكذلك المعتد ى الذى يعترض ويسأل فاشكروا نعمة تسخيرها من قبله تعالى.. نعمة التمكن منها والانتفاع بها ذاكرين حقيقة مهمة وهى :

أن رضى الله تعالى عنه لا ينصب على مجرد اللحوم والدماء ولكن الذى يرضى سبحانه هو الدوافع الشريفة التى تسوق إلى العمل الطيب وهكذا تستل الآيات من قلبهم دوافع الترف والاستعلاء لتغرس مكانها ملكة التقوى المواجهة إلى التى هى أقوم أما عن التفاخر بالآباء والتعنت فى ممارسة الشعائر .. فتقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي

الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ البقرة «١٩٩ - ٢٠٢ »

تأمرهم الآيات بالإفاضة من عرفات كما يفيض بقية الناس الذين هم وافقو بعرفات . ثم ترشدهم الى الاستغفار:

﴿ واستغفروا الله ﴾

إنهم عندئذ فى مساقط الرحمة ومن الحكمة أن يتعرضوا لها. إن الاستغفار عملية تخلية من أصار الماضى . تجئ بعدها التحلية بالطاعة على أساسها المتين وحتى إذا لم تكن للانسان خطايا فان العمر طويل ... والواجبات كثيرة فالاستغفار ضرورى ليواكب هذا القصور المحتمل فيمحوه .

لا بأس أن يذكر الإنسان أباه .. وجده .. ولكن الحقيقة التى تفرض نفسها هى أجمل الدين السمح .. فى الرجل السمح .. يكرم جنسك عليه.

والقران الكريم ينتزع القوم انتزاعا من هذه المظاهرة التى كانوا يقيمونها فى موسم : الحج .. بيد أنه تلطف عز وجل :﴿ **فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم اباءكم أو أشد ذكرا** ﴾

إن الاستغراق فى الماضى... ومحاولة البحث عن مثل ما ذاقة الآباء من صور النعيم وقوف بالنفس عند حظوظها المادية ... بقدر ما هو تجاهل لنصيبها من غذاء الروح.

وإذا سوغ المنطق لهم ذكر آبائهم لأنهم سبب وجودهم فان الوجود نفسه من عند الله تعالى ابتداء . وان ما تقلبوا فيه من النعيم هو منحة منه سبحانه .. وإذن ... فهو أولى بالذكر منهم.

والقرآن الكريم لا يقطع تواصل الأجيال هنا .. فإن حسن الصلة من أعظم وصاياه لكنه يثير فيهم الحماس ... ليسيروا فى الاتجاه الصحيح ... قبل ان يكونوا صورة مكررة لحياة آبائهم بلا جديد يضيفونه إلى المجتمع زكاة يؤدونها.

والموقف السليم : أن تمتد بالولد آماله ليكون لأبيه عمراً ثانياً ... وأن تسيتقظ فى نفسه أشواقه الرامية إلى استحضار عظمة الخالق سبحانه . ولا يتم ذلك إلا بذكر الله تعالى .

والمسلم إزاء هذا الدرس القرآنى لم يخلق ليبدد طاقاته فى متاع موصول يجدد به الماضى ... بل إن له رسالة تفرض عليه أن يرتفع إلى مستواه فيكسر من شهوة الطعام فى نفسه ... ويقاوم كل رغبة تهبط به إلى أسفل .. ليبقى فى العمر متسع لعمل صالح يخلد به .

والقرآن الكريم هنا يثير فى النفوس الإحساس العميق بأحقيته تعالى بالذكر وحده وإن لم تمنع الآية الولد من ذكر أبيه ﴿ **كذكركم آباءكم . أو أشد ذكرا** ﴾ وتلك هى النتيجة المؤكدة من الناحية العلمية .

١ - إن مفاخر الآباء قليلة .. وقصيرة العمر .. أما كمالات الله تعالى فلا تتناهي فلابد من ذكر يكافيء كمالها.

٢ - إن غضبك لله إذا عصى يجب أن يكون أشد من غضبك لأبيك إذا شتم.

٣ - هل يرضى أحدكم أن ينسب أبوه الى نقص ؟ فكيف بالحق سبحانه ؟

وإذن فهو أحق بالذكر منهم قطعا ، وكما يقول المفسرون إن ذكر الآباء مؤد بك إلى خطر سيهدد وجودك حتى فى حالة صدقك .. يقول الرازى :(إن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا فذلك يوجب الدناة فى الدنيا . والعقوبة فى الآخرة وإن كان صدقا فذلك يوجب العجب . والكبر وكثرة الغرور . وكل ذلك من أمهات المهلكات . فثبت أن اشتغالكم بذكر الله أولى من اشتغالكم بمفاخر آبائكم"

وكلام الإمام الرازى هنا مشمول بالحقيقة القرآنية التى ترجع الى ذكر الله تعالى كل نهضة مادية وأدبية ... وأن الأمة الذاكرة الشاكرة تضع بالذكر أقدامها على طريق الصعود ... فى الوقت الذى تنحدر فيه الامة الغافلة الى أسفل سافلين جزاء وفاقا :

يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ طه ١٢٤

ومهمة الشيطان الكبرى إلهاء الانسان عن ذكر الله ... ولا يتيسر له ذلك إلا إذا أعطاه الإنسان زمامه :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ الزخرف ٣٧

من أجل ذلك يهيب الله تعالى بالذين آمنوا ليتنبهوا فلا يقعوا فى الشرك المنصوب :

وحرى بالايمان أن تنجو بهم من كيد الشيطان الذى استحوذ على آخرين حرموا ذلك الإيمان.

إن اتجاه الإعلام الدولى اليوم إلى غاية من السراب ... لا يجد إنسان عنده شيئا ولكنه يواجه بالعقاب ثم العذاب.

لقد أقام وجوده على التفاخر وتزيين الرذيلة ... والتكاثر بالقومية ... والأمجاد التى لا تصبر على النقد الصحيح وتلك سمة بارزة ينفرد بها الإعلام حين ينفصل عن القاعدة الإيمانية هذه القاعدة التي يعمق القرآن أصولها ويثبت فى النفوس جذورها حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها ... وذلك عن طريق :

أ - العبادة التى تكسر النفس ... وتزيل ظلمتها - كما يقول العلماء - وهذا هو الاستغفار .

ب - وبعد العبادة يأتى الذكر ... تنويرا للقلوب ... الذى تتجلى فيه أنوار الحق .

جـ - ويأتى بعد ذلك الدعاء ... ليظل القلب مشدودا الى خالقه فلا يوكل إلى نفسه طرفة عين .

أما طـــلاب الدنيـــا:

إنهم لا يطلبون شيئا محددا ... وإنما يتمنون كل شيء ... المهم أن يؤتى ..

وبلا حساب للعواقب ... كما يفيد حذف المفعول ... مع أن طاقة الانسان محدودة ... وعمره قصير . ولا يمكنان من تحقيق الآمال ... وليس لهم رصيد من العمل يرشحهم لهذا الدعاء !.

إن طلب المتعة هكذا دليل على شره يتطلع إلى كل مرغوب ... ومن أى سبيل ولو كان معصية الله تعالى... وبأى ثمن ... ولو كان هو كرامة الإنسان !.

وهو المعنى المراد من حرف الجر « فى »

أى : هم فى الدنيا مستغرقون فيها ... ومن ثم فلا يسمعون . ولا يبصرون.

وفقدوا بذلك وجودهم الاجتماعى .. حين طلبوا كل شيء متجاهلين إخوانهم

من حولهم ... والذين يريدون مثلهم الحياة .. ولن تتيسر لهم الحياة والمترفون هكذا يفتحون أفواههم فى محاولة يلتهمون بها أرزاق الآخرين :

ولكن العقلاء من المؤمنين لهم موقف آخر:

إنهم مثلهم يطلبون الدنيا ... ولكنهم يطلبون أحسن ما فيها ... وإذا كان الأولون قد ذهبوا بطيباتهم فى الدنيا فلم يبق لهم فى الآخرة نصيب .

فإن المؤمنين دونهم: ﴿ **لهم نصيب مما كسبوا** ﴾ نصيب لا يأتيهم جزافا .. وإنما هو ناشىء من كسبهم .. وهم واضعوا أساسه بالعمل ... فجزاؤهم من جنس عملهم ، إنهم يقدمون على ربهم بالباقيات الصالحات ... والتى تمنحهم الخلود فى الجنة . لقد تركوا وراءهم تلك القباب .. وجفانا كالجواب ... وبقيت النوايا الطيبة مترجمة إلى أعمال صالحة . هى اليوم ظلهم الظليل ... وعمرهم الطويل .

وبهذا المنهج الربانى الحكيم أمكن على ما يقول الرازى : « تحويل القوم عما اعتادوه بعد الحج من ذكر التفاخر بأحوال الآباء ... لأنه لو لم ينه عن ذلك بإنزال هذه الآيات لم يكونوا ليعدلوا عن هذه الطريقة الذميمة .

فإذا ضمت الآيات الكريمات إلى أمثالها فى كتاب الله تحققت الغاية المنشودة من وراء ذلك كله وهى :

قهر النفس . ومحو آثار النفس والطبيعة . ثم هذا العزم ليس مقصودا بالذات . وإنما المقصود منه أن تزول النقوش الباطلة عن لوح الروح ... حتى يتجلى فيه نور الله .

وبعد :

فإن الإعلام الدولى اليوم إنما هو صورة مكبرة للإعلام فى بواكير الحياة الأولى ... فى أهدافه ... ووسائلة وحبائله !.

ولهذا السبب نفسه تدور المعركة كما أشرنا فى المقدمة بين رجال التربية البناة ... وبين الذين يعاكسون اتجاههم الراشد .

والأمة الاسلامية مطالبة بوعى هذه الدروس القرآنية وفاء لدينها ... وانتصارا على عدوها ولتكن معركة مباركة يقف فيها الإعلام الإسلامى على أصوله التربوية المستمدة من كتاب الله تعالى..

١ - استغفار .. نتخلص به من خطايانا تخلصا تطهر به نفوسنا .

٢ - ذكر الله تعالى.. تصطبغ به برامجنا وأعمالنا الفنية والعملية .. حتى لا نضل فنزل .

٣ - دعاء متجدد لا يسمح لمشاعر الغرور أن تشوش علينا ... ليبقى الحول والطول والقوة ... لله جميعا .

المنهج الإسلامى فى الدعوة

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾ البقرة ١٤٤

من بين نظريات الإعلام ما يسمى «تحصين المتلقى» وهى نظرية يراد بها حماية المستمع من كيد الأعداء وما يروجونه من سموم بيضاء .. أوسوداء .. حتى إذا واجه الحملة المغرضة الرامية إلى احتوائه. كان له من أسلحة الدفاع ما يصد به الموجة الغازية .. على نحو ما يقول الشاعر :

عرفنا الليالى قبلما نزلت بنا

فلما دهتنا لم تزدنا بها علما

ولقد كان تحويل القبلة نقطة تحول فى بناء الشخصية الإسلامية المستقلة .. حمى الله تعالى به أولياءه من كيد أعدائه .. وقبل أن يصبح هذا الكيد واقعاً ... ولقد كان المتوقع طبق التسلسل الزمنى أن يكون ترتيب الآيات النازلة بشأن تحويل القبلة هكذا:

﴿ **قد نري تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ..** ﴾ الآية.

ثـــم ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ..** ﴾ ولكن الله تعالى قدم آية ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ مصدرا بها الحديث عن قضية التحويل ... وذلك ... تزويدا للأمة بما سوف يحدث .. وإحاطتها

علمـا بما سـوف يعـرف به أعـداؤنا ... ليسـتـعـدوا من الآن .. وقـبل نزول البلاء..لخوض حرب إعلامية وشيكة الوقوع ... حتى إذا نزلت بساحتهم لم تكن مفاجأة لهم ... فكانوا لها صامدين ... وللقبلة الواحدة أهمية فى حياة المؤمنين .

فإذا اقتضت مشيئة الله تعالى أن يخلق الناس لعبادته .. فقد كان من حكمته سبحانه أن يتجه بهم فى عبادتهم إلى قبلة واحدة . لأن من شأن القبلة الواحدة أن تجمع قلوبهم.

فإذا صفوا أقدامهم نحوها متوحدين ... موحدين ...انعكس هذا المشهد الآسر على قلوبهم ... فواجهوا الأحداث بقلب واحد .

ومن حكمته تعالى أيضا أن تكون القبلة هى : الكعبة البيت الحرام .. فمن تناسق الكون .. أن تتجه الأمة الوسط ... إلى القبلة الوسط .

يقول الرازي :

« إذا حضر العبد الضعيف مجلس الملك العظيم .. لابد ان يكون مستقبله غير معرض عنه »

والمقصود من الصلاة : السكون. والخضوع. وترك الالتفات والحركة . وهذا لا يتم إلا إذا بقى فى صلاته ملتزما جهة واحدة على التعيين .. فاستقبالها أولى .

ثم إن الله تعالى يحب الألفة والموافقة بين المؤمنين فوحد قلوبهم . والكعبة سرة الارض ووسطها - وقد أثبت العلم الحديث ذلك - فأمر الله جميع خلقه بالتوجه وسط الأرض إشارة إلى أنه يحب العدل فى كل شىء

وعندما اتجه المسلمون إلى بيت المقدس ابتداء .. فرح اليهود فرحا سول لهم استغلال هذا التحول لمصلحتهم .. فقالوا للمسلمين :

[لولا أنا أرشدناكم إلى القبلة لما كنتم تعرفون القبلة] .

وقد كانت لهذه الهجمة النفسية آثارها فى الصف المؤمن .

فقد شوشت على خواطر بعض المسلمين .. الأمر الذى دعا الرسولﷺ إلى تقليب وجهه فى السماء .. راجيا تحويل القبلة لتكون الكعبة المشرفة .

ولقد حقق الله تعالى برحمته رجاء رسوله .. ولتأخذ الدعوة سبيلها على سواء الصراط .

ولقد حقق الله تعالى برحمته رجاء رسوله ﷺ . . فأحبط كيد الأعداء الذين بدأوا يستثمرون الواقع لحسابهم . . ولتأخذ الدعوة سبيلها على سواء الصراط.

وإذن فلم يكن تحويل القبلة بهذا المعنى مجرد استبدال جهة بجهة . . ولكنه كان . بداية لصقل الشخصية الإسلامية التى يجب أن تظل فوق القمة دائما ... بعيدا عن متناول الأعداء .. تطل من عليائها . متميزة . لا تنحاز

إلى شرق ولا إلى غرب .. وأصله بهذة الشخصية المتميزة إلى حيث أراد لها ربها سبحانه وتعالى .

داعية إليه من موقع القوة ... ذلك بأن الكلمة المسموعة انما تاخد اهميتها من شخصية قائلها .. وكلما كان مترفعا بإيمانه .. عزيزا بربه .. غنيا بمبادئه .. كلما كان صوته أسري .. وأخرى .. أن يستجيب له الناس طائعين .

يقول المفسرون :

« امرهم الله تعالى حين كانوا بمكة ، ان يتوجهوا الى بيت المقدس .. ليتميزوا عن المشركين . فلما هاجروا إلى المدينة .. وفيها اليهود – أمروا بالتوجه الى الكعبة ليتميزوا عن اليهود » أ.هـ.

ولقد فطن إعداء الإسلام إلى هذا المعنى .. مدركين دلالة الحديث على تميز الأمة الإسلامية .. وتفوقها .. ففزعوا مدفوعين بالجسد . فى حملة مغرضة تجرد الموقف من معناه .

ولما كان اليهود طليعة المعتدين .. فقد تحملوا كبر هذه الحملة .. بينما احتطب فى حبلهم المنافقون والمشركون .. وكان لكل فئة نوعية من الإعلام الموجه يحمل خصائصها ونواياها .

قال المنافقون : « ما بالهم كانوا على ملة .. ثم تركوها » ؟ .

وقال المشركين : « تحير فى دينه .. ثم أقسموا : والله ليرجعن الى دين آبائه . »

ولقد حققت الحملة الإعلامية نجاحاً موقتا .. بدا فى جزع المسلمين على مصير صلاة إخوانهم الذين ماتوا قبل أن يتحولوا »

ولئن كان هذا الجزع دليل وفاء منقطع النظير .. من إخوة أحياء شفقة على إخوة ماتوا ... فإنه من ناحية أخرى سلبية ينبغى أن تعالج بالحكمة .

وكان من الحكمة تحصين المسلمين سلفا .. ضد هذه الموجات العاتية وقبل وقوع المكروه فإن مفاجأة المكروه : أشد .. والعلم به قبل وقوعه . أبعد عن الاضطراب .

ومن أجل ذلك صدر الحق سبحانه وتعالي حديث القبلة بقوله تعالى :

﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ..** ﴾ فحصنهم سبحانه قبل نزول البلاء .. فكانوا للقائه مستعدين .. واذ يهرف الأعداء بما يعرفون .. وما لا يعرفون .. فليذلوا فطرة العدوان فى أنفسهم .. وأهم من ذلك أن تكون أيدينا على السلاح .. استعدادا للخطر القادم .

أنا لا الوم المستبد إذا تجبر او تعدى ... فسبيله ان يستبد ... وشأننا ان نستعدا .

وهكذا كان تحويل القبلة درسا مفيدا على طريق الدعوة .. زود المسلمين وبما سوف يقوله الأعداء .. وما تخفى صدورهم أكبر .

وكيف يقف الدعاة فى المنعطفات الخطيرة .. متجاوزين بالدعوة مؤامرات أعداء ما يفتأون يمكرون .

ومن دروس الآيات الكريمة فى هذا الشأن :

أن الله تعالى يكشف للمسلمين معالم الواقع .. والمستقبل : من هم أعداؤكم .. ومن انتم؟

ثم ماوزن هؤلاء الذين يشغبون عليكم ؟

وما هو وزنكم الممتاز بين الأمم .. والذى يفرض عليكم إدارة المعركة لحساب الحق .. دون تأثر بالإعلام المادى المعادى ؟

كيف يقف المحقون جبهة واحدة ... في مواجهة باطل مغرور .. يتحدي الحق الذي تعتنقون ؟ كيف يتصرف الغيور على الدعوة حتى لا يشمت بالامة أعداؤها ؟

فليعرف المؤمنون موقعهم المتميز .. والذى يبدو الأعداء إلى جانبه صفرا .. وعلى الشمال وإذاً فلينطلقوا بالدعوة رافعين لواءها فى ثبات : لماذا ؟

أ - لأن اعداءكم سفهاء .. خفاف الاحلام . لا يثبتون على حال من القلق . ومن ثم . لا يشكلون على طريقكم خطرا .

ب - ثم إنهم « ناس » من الناس .. خامة مفرغة من الإيمان .. وحملتهم تلك التى تبدو مجلجلة .. انما هى الزبد .. فسوف تذهب جفاء .

حـ- وأنتم الأمة الوسط ... أساتذة تعلمون الحياة فن الحياة .. وهؤلاء لايصلحون حتى تلاميذ لكم .. بعد ان فقدوا بالحسد صلاحية التلقى .

د - وجزى الله الشدائد كل خير .. عرفت بها عدوى من صديقى.. وقد عرفنا بهذه الشدة علة القوم .

فلم تكن علتهم معاداة الحق جهلا به .. بل إنهم أذكياء .. يعرفونه .. لكنهم يعادونه .. فهم يعيشون لا أزمة ذكاء .. ولكن أزمة ضمير !! .

﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ . وهذا هو الخطأ الأكبر كما يقول العقاد : « إن ضخامة الخطأ مع سهولة العلم بالصواب . خليق ان يفتح الاتهام فى سلامة القصد . قبل الاتهام فى سلامة التفكير » .

أما بعد :

فما تزال حملة التضليل مستمرة . فما زالت أبواق الإعلام تخترع افتراءات جديدة .. لها نفس الهدف القديم وهو : تفتيت وحدة الأمة الإسلامية . ليسهل القضاء عليها .

لقد قال تعالى : ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ .. وما زال السفهاء يقولون : وإذا قال الفجرة بالأمس البعيد : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾ . فإن ملاحدة اليوم يقولون : ما ولاهم عن قوانينهم التى كانوا عليها .. ما الذى حملهم على ترك مذاهبنا .. مطبقين شرع الله ؟

وهكذا .. أريد حياته .. ويريد قتلى!! وإذا كان أعداؤنا اليوم منطقيين مع أنفسهم حين يروجون لقوانينهم .. لباطلهم .. فما عذر صوت سيده . الذى يردد نفس الهواء وفى رأسه عقيدة من شأنها أن تردعه ؟! ان ذلك ليحملنا على أن نقول .اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم !.

كيف تبدو الشخصية الإسلامية متكاملة من خلال شعائر الحج

منذ كانت هناك حياة والبشر يحجون :

حج الهنود .. وحج المصريون .. وحج اليونانيون . ولكن إلى الهياكل المقدسة . وإذن فلم يكن هذا الحج هو النموذج السليم للحج كما أراده الله تعالى.. إعدادا للفرد .. وصياغة للأمة

فلما جاء الإسلام الحنيف .. ارتفع بفكرة الحج هذه .. لتكون فريضة على من استطاع إليها سبيلاً .. فيولى وجهه إلى مكة .. البلد الحرام .. والى الكعبة .. البيت الحرام .. مع غيره من الملايين الذين تطير على أجنحة الشوق استجابة للنداء العلوى الخالد : ﴿ **وأذن فى الناس بالحج** ﴾ .

فتحث المطايا على السير إلى مشرق النور .. ومهبط الوحى .. ونبع اليقين. وتتجلى للناس روعة الاجتماع .. وتتملي العين جلال الوقف .. فتستعيد القلوب ذكريات الدعوة وكفاحها .. وتستشعر الأرواح ماضيا تليدا ومجيدا . وهناك يكون مرمانا . وموقنا ومسعانا .

وهناك أيضا تأخذ الأمة الإسلامية بيمينها فى شخص حجيجها مفتاح التفوق الحضارى فى كل مجالات الحياة : وذلك قوله تعالى :

﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ وتتسلم أيضا مفتاح السمو الروحى فى مجال العقائد والأخلاق . وهوما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ **ويذكروا اسم الله** ﴾ . وتتبلور الشخصية الإسلامية فى بوتقة من وحدة العقيدة

والشريعة.. ووحدة الزمان والمكان . وعن هذا الالتقاء فى أصول الاجتماع.. وفى تربة من هذه المشاركة الوجدانية

يتكون رأى عام إسلامى عالمى . له من القوة والفعالية ما يغير بهما وجهة التاريخ ويفرض رأيه على سير الحياة ومعنى هذا أن فى الحج حكما وأسرارا بعيدة .. لو أدركت فطبقت لآتت أكلها .. وجمعت المسلمين فى أقطار الأرض على البر والتقوى .

فأكرم بها من فرصة تهتبل .. ومن تجارة رابحة تنجى من عذاب اليم. وتقرب من رب كريم . وإنه لمشهد رائع هناك فى ربا عرفات :

يؤكد للعالمين : كيف استطاعت : لا إله الا الله محمد رسول الله أن تجمع هذا الموج المتلاطم من كل فج .. على اختلاف فى الألسنة والألوان .. ليقفوا جميعا أمام الله تعالى يهتفون بلسان واحد يفهمه الجميع : « لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك » . وفى حرارة هذا النداء الراعد . تذوب الفوارق وتتجانس الشعوب . وتختلط الألوان لتصير لونا واحدا .. كما كانت خريطة السلام لونا واحدا .. ويتردد الصدى السارى .. فيهز فجاج الأرض جميعا .. ويتلفت العالم للصيحة الراشدة تهزه من جديد .. فيزداد إحساسا بقوتنا .. وتنفتح أبواب السماء بماء ينهمر يغسل الأدران ليعود القلب نظيفا كما خلقه الله تعالى نظيفا .

ويعود الحجيج من الرحلة المباركة بمزيد من الثقة بأنفسهم .. وثقة

العالم بهم .. وتأييد الله تعالى لهم .

فتبدأ مواكب النور زحفها من جديد إلى المجد المنتظر ... في ظل هذه المعاني كلها .

« إن الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » كما قال ﷺ :

ومن مظاهر البر : لين الكلام وإطعام الطعام ... والعفو عن زلات الآخرين ..

وبعد ذلك إتاحة الفرصة لإنشاء علاقات جديدة مع الآخرين تجمعنا على كلمة سواء .ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

ومن هنا كان الحج كما أراده الاسلام مظهرا إيجابيا تتحدد به شخصية الجماعة الإسلامية ويتجدد شبابها ويدوى صوتها .

وبناء على هذه المنافع العظمى ... فإن كل قادر على الحج يتخلف عن الحج يرتكب خطيئة أيضا عظمى ... بقدر تخليه عن جهد يدعم به بناء أمته .

وإنه لفار من الزحف ... ناكص على عقبيه.

وعليه أن يختار الموت يهوديا أو نصرانيا .

وأما أنتم يا حجاج بيت الله ... فعلى بركة الله تعالى . أيها الملاح : ارفع شراعك .. واضرب بمجدافك .. وانطلق بنا فوق أثباج الماء صوب الحبيب .

لا تقل غاض ماء البحر .. إن دموعى وافرة تستطيع أن تشق لك نهرا .. لأسعد بلقاء الحبيب . وأنتم ايها المشتاقون الذين لم يسعدهم الحال فلم يستطيعوا إلى حج البيت سبيلا .. احبسوا فى أعينكم دموع الفراق .. واكتموا فى قلوبكم زفرات الأشواق .. وفى يوم قريب .. سيطلع الصباح .. وعلى نوره تأتلف الأرواح .

ماذا بعد الحج

يقول بعض العارفين :

لله تعالى فينا ثلاث : أمر ، وقضاء ونعمة .

وفيما يتعلق بالأمر : فإن لله تعالى على العبد فى كل عضو من أعضائه امرا وله عليه فيه نهيا . وله فيه نعمة وله به منفعة . فإن قام لله فى ذلك العضو بأمره .. واجتنب فيه نهيه .. فقد أدى شكر نعمته عليه .. وسعى فى تكميل انتفاعه به ولذته فيه . وإن عطل أمر الله نهيه فيه .. عطله الله من انتفاعه بذلك العضو . وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته .

وقضاء الله نوعان : مصائب . ومعايب . وعبوديتنا لله تعالى هنا : أن نصبر عند المصائب .. بل نرضى بها ... وعلينا فى الثانية أن نتوب نصوحا. وعبوديتنا فى النعمة أن نشكرها .. وشكرها :

١ – الاعتراف بأننا لا نستحقها ابتداء .

٢ – وأنها جاءتنا تفضيلا وبلا ثمن دفعناه .

٣ – استعمالها فيما خلقت له .

٤ – استكثار قليلها .. واستقلال شكرها .

٥ – لا تزيدنا النعمة إلا ذلا واحتقارا .

٦ – وإن انقطاعها فبما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير .

وجه النعمه فى أداء الحج :

إن التوفيق إلى أداء فريضة الحج . يشكل في ذاته نعمة عظمي .. مختلفة الألوان والثمرات .

١ - لقد وفقك الله تعالى أولا الى اتخاذ قرار الحج ... بينما كثير غيرك قادرون على الحج .. بيد أنهم محرمون من نعمة التوفيق إلى اتخاذ مثل هذا القرار .

٢ - ثم رزقك سبحانه المال المعين على أدائها .

٣ - ثم زودك بالطاقة التى تتحمل بها أعباء السفر . والصبر المساعد على أداء المناسك .

٤ - وأخيرا .. عدت إلى أهلك سالما غانما . ويبقى بعد تمام النعمة أن تخلص فى شكرها .

كيف نشكر نعمة الحج :

لقد أتيحت لك فرصة ذهبية بالحج هى : عودتك من أدائها كيوم ولدتك أمك

وفى استطاعتك أن تبدأ رحلة الطهر من جديد بشكر هذه النعمة شكرا عمليا ترد به الجميل - وهيهات - إلى من أسدى إليك الجميل سبحانه :

لقد عشت فى ضيافة الرحمن أياما . . . . ذقت فيها : طعم الأمن . . . ومتعة الهداية . . ومعنى البركة .

وملأت ناظريك بالآيات البينات فى بيت الله المعمور ، لقد ذهبت إلى البيت ابتداء : حائرا . . فقيرا . . مشوش القلب فعدت عامر القلب بما منحك الهادى سبحانه وتعالى من النور . . وما حباك . . . الغنى . . . من العطاء . وما متعك به من الطمأنينة . . بعد القلق وإذن . . فلتقدم إلى الحياة قبسا من هذا الهدى . . . لتكون لغيرك . . مرشدا . . ومعينا . . وبارا .

باختصار : أن تكون بارا بعيال من أسدى إليك هذه النعم سبحانه وتعالى . «إن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »

وليس البر أن تظفر بلقب تدل به على غيرك ممن لم يؤد الفريضة ولكن البر : من آمن بالله ورد الجميل إلى خلق الله تعالى . . عملا صالحا . . وكلما طيبا .

إن مجرد أداء الفريضة لا يرشحك لدخول الجنة . . . إلا إذا عشت عل مستواها طهرا ونبلا .

ولك فى تقاليد الحياة من حولك شاهد .

فإنه إذا أعلن عن وظيفة . . ثم رشح لها مستحقها . . فإنه لا يظل مستحقا لراتبه إلا إذا أبقى على المواهب التى رشحته لها ابتداء .

والبدايه الآن من السهولة بمكان . . وأنت تعيش قيم الحج غضة طرية فى خيالك .

فخذ القرار بمواصلة الحياة مع الأطهار .. ولا تؤجل قرار اليوم إلى الغد . . فتزداد مشكلتك تعقيداً .

وتذ كر حسرة الظالمين يوم القيامة حين يقول : ﴿ **هل إلى مرد من سبيل** ﴾

إنهم يتمنون أن يعودوا إلى الحياة تارة أخرى . . ليستأ نفوها من جديد على تقوى من الله ورضوان وهيهات . أما أنت فقد أتيحت لك فرصة العمر .. وعدت وليدا أبيض الصحيفة كما كانت ... بعد أن غسلت بالتوبة أوضارها ..فانتهز فرصة ذهبية إذا تركتها تفلت من بين يديك .. فقد لا تعود

الوفاء بالعهد :

لقد زرت البيت الحرام .. وعاهدت الله تعالي الاستقامة .. وإن العهد كان مسؤولا ورأس الوفاء أن تكون لهذا الدين ناصرا .

لقد أكرمك رب البيت سبحانه .. فدعاك لضيافته .. وقد رأيت من كرمه ومن الوفاء له سبحانه أن تعز دينه .. وتعمل به .. وله .. مع العاملين . لقد دفعت المال وهو عزيز .. ثم حصلت به على ما هو أعز من المال .. تلك القيم العظيمة التى زودك الحج بها ... فحافظ على هذه الثروة الغالية من الهم الاكبر .

في سورة الحج .. وبعد الفراغ من الحديث عن فريضة الحج وشعائرها ..يذكر الحق تعالى بعد ذلك مباشرة القتال .

ذلك قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ الحج ٣٧ – ٣٩ .

فالآية الأولى تلخص الهدف البعيد للحج من وراء شعائرها وهو : التسلح بالتقوى .

وربما جاز لنا أن نفهم سر الحج الأكبر وهو : أنه ليس رحلة سياحية ترفيهية .. بقدر ما هو إعداد للأمة .. باستثمار طاقاتها .

وتنميتها ..لتظل مرصودة لنصرة الحق .

بمعنى أنه إذا كان للحج مقاصده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. فإن له كذلك مقصده العسكري .. والذي لو تحقق لحمى كل هذه المقاصد من الضياع .. ومكن لها فى الأرض لتظل سارية المفعول .. ولن يتحقق ذلك إلا بالتقوى . فالدماء التى سالت فوق الرمال العفراء واللحوم التى أكلت .

كل اولئك قد أدى دوره فى حينه ... وتظل قيمة التقوى أثمن درة فى تاج الإيمان .. وأعلى ما تنهض عليه الاوطان .

سأل حاكم أحد العلماء فقال : ألك حاجة ؟

قال : نعم.

قال : ما هى ؟

قال : أن تتقى الله تعالى .. فلأن تتقى الله خير من أن يصير هذا الحائط ذهبا !!.

وصدق الشاعر إذ يقول :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ∴ ولا قيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله ∴ وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

واجب الأمة :

يقرر الفقهاء أن طواف الوداع لا رمل فيه ... ويعنى ذلك استجابة الإسلام لمشاعر المودع المشوق ... والذي يؤديه هادئا ... ساكنا .. وقورا... منسجما بذلك مع موقف الوداع .

وواجب الأمة الإسلامية اليوم أن تنسجم مع أسرار الفريضة وحكمها.

ومن صور الانسجام أن تجعل من دروس الحج دستور حياتها . تلقنها أطفالها ... وتتعهد به شبابها ... لتظل حية متوهجة فى ذاكرتها لاتغيب ... وأن تجئ وفودها إلى هنا مزودة بقيمة هذه الفريضة وأثرها فى حياتنا .. وضرورة الوعى بها ... عليها أن تفعل ذلك قبل أن تصاب بفقد

الذاكرة .. فتنسى دروسا عزيزة فى دينها .. وهى أشد ما تكون حاجة اليها « إن مر الليالى والنهار لا قيمة له بالنسبه إلى من فقد ذاكرته . وفقد وعيه .. ونسى تاريخه » .

إن الأمراض التى تشيع أحيانا . وينقل أصحابها إلى مستشفيات الأعصاب هى أمراض فقد الذاكرة .

وقد أشار الى هذا الصنف بقوله :

مثل القوم نسوا تاريخهم ∴ كلقيط عى فى الناس انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة ∴ يشتكى من صلة الماضى انقضاب

خواطر فى الحج

يقول الحق تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ الحج ٢٧ - ٢٨

من دروس الآية الكريمة :

تبقى الآية الكريمة حافلة بالدروس والعبر التى تشير إلى ما يحققه الحج المبرور من منافع منها :

عودة الحجيج أمة واحدة .. فى مواجهة أعداء لا يألونهم خبالا .. ودوا فرقتها وإعناتها .

إن الحاج ليعود إلى أهله كما ولدته أمه .. صفحة بيضاء خالية من غير سوء . ولكنه يظل معزولا .. غير مشدود إلى غيره من الأبرار ..

لقد كنت أعجب من الفلاح .. عندما يرى مجموعة متلاصقة من أعواد الذرة .. فيقلع بعضها .. وتبقى أعواد تفصلها مسافات محددة .

وكنت أقول : لماذا لم يترك ما قلعه ليزداد المحصول ؟ ولم يطل عجبى. عندما عرفت السر :

إن المجموعة المتلاصقة .. سوف يضعف بعضها بعضا وان كان كل عود فى ذاته خيرا .

وسوف لا تثمر .. أوتثمر ولكن الثمر يكون قليلا هزيلا .

وبعد خمسين عاماً .. رأيت نفس الشئ فى حقل « البشر مجموعة من جماعات الخير فى القرية .

كلهم يطلب الخير للقرية وفى نفس واحد .. وطاقة البلد . كطاقة الأرض لا تتحمل هذا العدد .. ومع أن كل جمعية فى ذاتها تريد خيرا ... إلا أنها يضعف بعضها البعض .. ولو تلخصت فى جمعية واحدة لكان أهدى .. وكان أجدى .

ومن هذه الدروس : الإحساس بهوان الدنيا . وسرعة تقضيها .

وقد قيل : من أراد أن يعرف الدنيا . وانقضاءها فلينظر الى « منى » بعد الرحيل اهلها .

فاستعد من الآن للرحيل ... وقد استعد من قبلنا أناس .. منهم ذلك الرجل الذى سأل عليا رضى الله عنه فقال : هل أنا من أهل الدنيا ... أم من أهل الآخرة .

فقال له الإمام : الجواب عندك ... إن كنت تفرح بمن أقبل عليك يطلب منك مالا ... فأنت من أهل الآخرة ... وإن كنت تفرح بمن يدخل عليك ليعطيك فأنت من أهل الدنيا .

وكما قال العارفون : أنفاسك : هى خطواتك إلى الآخرة ... وكلما اقتربت من الغاية ... كلما قلت فرص العمل .

فضاعف الجهد ... وهب أنك عشت ألف سنة .. أليس مصيرك بعدها

الموت ؟ فلتستعد . فمن نافسك فى الدين .. فنافسه . ومن نافسك فى الدنيا .. فألقها فى نحره ... ورحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة .. فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ... ثم راحوا راشدين .

فحيهلا بكل تائب ... عائد إلى ربه ... بعد ما عاد ولدته أمه فواتته فرصة استئناف الحياة من جديد على تقوى من الله ورضوان :

قد مضى فى اللهو عمرى ، وتناهى فيه أمرى

ويح قلبى من تناسيه مقامى يوم حشرى

واشتغالى عن خطايا أثقلت والله ظهرى

أما بعد : فخير البر عاجله

فلنبدأ .. ومن هذه اللحظة .. فلنبدأ رحلة العودة فارين إلى الله تعالى .. من هذه الدنيا الزائلة .. والتى تحرضنا طبيعتها على الزهد فيها .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة وهو فى تقلص وانقباض أن تتبعه أتدركه فلا تلحقه ... أشبه الأشياء بها السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر يطلب الإنسان منها النكاح فقالت لا مهر إلا نقد

الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون ولا مستباح فآثر الخطاب العاجلة وقالوا ما على من وصل حبيبه من جناح ، فلما كشف قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية فمنهم من طلق واستراح ومنهم من اختار فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح .

حتى متى وإلى متى نتوانى ∴ وأظن هذا كله نسيانا
والموت يطلبنا حثيثا مسرعا ∴ إن لم يزرنا بكرة مسانا
إنا لنوعظ بكرة وعشية ∴ وكأنما يعنى بذاك سوانا
غلب اليقين على التشكك في الردى ∴ حتى كأني قد أراه عيانا
يا من يصير غدا إلى دار البلى ∴ ويفارق الإخوان والخلانا
إن الأماكن في المعاد عزيزة ∴ فاختر بنفسك ان عقلت مكانا

تأملات فى محكم الآيات

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ الحج ٢٦ - ٢٨

قبل هذه الايات الكريمة يجيء قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾

تجيء هذه الآية الكريمة توطئة وتمهيدا للإحساس بعظمة البيت الحرام . الذى جل حقه الى الحد الذى يؤاخذ الله فيه حتى من شتم خادمه !

لقد رفع البيت بالطوفان .. ثم عرف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بمكانه بواسطة ريح كاشفة .. ثم رفعه عليه السلام ليكون رمزا للتوحيد فى الأرض ومن شكر هذه النعمة أن يظل كذلك أبداً وقد كان الخليل عليه السلام أهلا لتحمل هذه المسئولية العظمى :

إنه الأواه .. الحليم .. الذى وفى ..

والذى ﴿ كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الي صراط مستقيم ﴾ . وهكذا .ودائما .. القيم تكلف بها القمم.

ولقد كانت مهمته :

التخلية .. بتطهير البيت : بإصلاح ما أفسد المشركون فى العقيدة .. بتنقيتها من الدخيل . ثم التحلية حين يؤذن فى الناس بالحج .. ليهرع إليه الموحدون .. مستجبيين . (ليشهدوا منافع لهم) . وهى منافع تفرض على الموحدين أن يدفعوا ثمنها بالحرص على قيم هذا البيت الذى هو لهم .. وحدهم .. وليس للمشركين .. ويكفى ذلك تحريضا على الحفاظ عليه .. وعلى كل ما ارتبط به وهو الأقصى !

والله تعالى مع الموحدين .. ولن يترهم أعمالهم ..

لقد أسمع الدنيا كلها صوت إبراهيم .. وبقى على أمة التوحيد أن تظل عند حسن الظن بها مستمسكة بالبيت .. لتظل أهلا لمعية الله تعالى والذى يسخر لها قوى الكون لتقف إلى جانبها ضد أعدائها .

لقد كان إبراهيم عليه السلام هو الأصل فى بناء البيت .. واسماعيل عليه السلام تابع له .

ولكن قوله تعالى : ﴿ **وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ..** ﴾ يجعلهما معا مسؤولين عن بناء البيت ..

واذن .. فاستمرار البيت رمزا للتوحيد مسئولية الأمة كلها ما دام ذلك داخلا فى قدرتها . وإنها لقادرة بإذن الله تعالى ..

« قيمة الجمال »

فكرة الجمال أصيلة فى الإسلام .. والزينة خيط فى نسيج عبادته ..

يقول تعالى : ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين** ﴾

ويقول عز وجل: ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾

ونحن موورن بتملى هذا الجمال :

بالعين : التى ترى الجارى .. والضوء السارى .

والأذن : التى تستمتع بما أحل الله من الأصوات الجميلة .

وأجمل من ذلك كله : جمال الفضيلة .. جمال : الوفاء .. والإخاء .. والإيثار .. إنه الجمال الأبقى :

ذلك بأن المشهد الجميل قد يفر من بين يديك .. فيتألم حسك .. ولا دخل هنا للضمير ..

أما جمال الفضيلة .. فانه إذا غاب .. توترت أعصابك .. وصحا ضميرك ليمارس حقه فى اللوم والتثريب .

وفى الأنعام جمال .. يعبر عن عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى :

﴿ **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾ .

وقد نرى من بعض منافع بهيمة الأنعام .. ما فيها من جمال .. فإذا صارت هدايا .. كان الجمال .. جمال الالتزام بأمر الله على أوفى ما يكون.

يقول العلماء .. من الله تعالى بالتجمل بها . كما من بالانتفاع بها : لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها :

لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى. وسر حوها بالغداة . فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية .

وتجاوب فيها الثغاء والرغاء .. آنست أهلها . وفرحت أربابها .

وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها . وأكتسبتهم الجاه والحرمة عند الناس .

وقد عمى عن هذا الجمال ناس .. يصفقون لكل ما هو غريب وافد .. بينما تعمى البصائر عن رؤية هذا الجمال الإلهى .. فى هذا الهدى المسوق إلى بيت الله طاعة لله تعالى ..

إن الألم ليعتصرهم .. ودموع التماسيح تتحدر على وجوههم .. أسفا على آلاف الذبائح التى يظنون أنها تذهب عبثا .. تتخطفها الطير .. غافلين بل متغافلين عما يجرى هناك فى بلادهم من قتل البشر .. والمقابر الجماعية التى لم تحرك فى رؤسهم شعرة .. ولم تحرك من أعينهم دمعة !

فـ ﴿ **أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا** ﴾ سورة مريم : ٣٧ .

النعمة العظمى

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ﴾ المائده «٩٧»

تجيء هذة الآية الكريمة بعد قوله تعال :

﴿ .. وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما .. ﴾ والتى تحتفظ حتى للوحوش بحقها فى الأمن والقرار .. تجيء بعدها لتؤكد حق الإنسان فى أن يكون آمنا فى سربه من المخافات والآفات .

والسؤال الآن : من الذى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس ؟

إنه الله تعالى .. والتعبير بلفظ الجلالة .. الله . لتربية المهابة الحاملة على الاستجابة ..

فلله الخلق والأمر ..

فلنعظم الكعبة .. متمثلين قيمتها الرفيعة .. والى أى حد كانت نعمة الله الكبرى .. ذلك بأنها الكعبة :

والكعبة تعنى العلو والارتفاع . من الكعاب وهو : الارتفاع ..

فهى إذن : عالية .. رفيعة . . مربعة الشكل .. متوازنة جميلة .. بيت العائلة الكبير .. نأوى اليه .. كلما حز بنا أمر .. او ألمت بنا ضائقة .. إنه

البيت الحرام .. فحمايته واجبنا المنوط بنا .. وما ارتبط به وهو المسجد الأقصى الذى بارك الله تعالى حوله .

ثم إنه الحرام .. بما فيه من أمن سابغ .. تهدأ فيه الأعصاب .. وتطمئن فيه القلوب .. فضلا عن أنه سيظل ﴿ **قياما للناس** ﴾ .

قياما : فى الدين والدنيا ... فهو رمز للتوحيد .. تجبى اليه ثمرات الأرض .. ودائما . وفى كل الفصول ثم هو قيام للناس جميعا .. فخيره سابغ ... وفضله عميم .. وهو لمن آمن بالله تعالى « قيامة » .. يعنى : يعنى يقيم الله تعالى به صلب الأمة لتظل مرفوعة الهامة .. قاماتها منصوبة .. لا تنحنى .. وقد تنحنى يوما .. ومرحليا .. إلى أن تمر العاصفة .. إنها قد تنحنى سياسة .. لكنها لا تنكسر ابدا !

أجل إنه قيامنا .. حياتنا .. بما يرمز اليه من قيم التعاون والتناصر والوحدة .. والإخاء ..

لقد ثبت أن الكعبة مركز الأرض .. سرتها .. ووسطها .. واذا كنا أمة الوسط فلنظل كذلك بعداء عن الاطراف التى تآكل .. متمركزين فى الوسط المحمى من هذا التآكل .. شاهدين على الناس .

وما دمنا مستمسكين بحبل الله المتين فانه تعالى معنا .. يسبغ علينا الامن غادين .. ورائحين ..

بالهدى : يحرم دماؤنا عند القدوم .. وبالقلائد يحرم دماؤنا عند الرجوع وفى الأمن يكثر النتاج . وتستقر أوضاع الأمة على السداد .. وما يترتب على ذلك من راحة نفسية تكتمل بها شخصيتنا .. فلا نمكن الغير منا ..

وقد أراد الله تعالى ذلك كله .. لتعلموا أن الله حقق لكم الأمان والحال أنه لا دولة لكم تحميكم .. لتتوكلوا عليه وحده دون سواه .

إنه تعالى يسوق إليكم المصالح . ويرد عنكم المضار .. لتشكروه بحسن عبادته سبحانه وتعالى شكراً تفيدون به نعما لا تحصى ..

إن صيرورة الكعبة قياما للناس كل الناس حقيقة تفرض نفسها .. من حيث إن جاعلها هو الحق تعالى .

ويبقى بعد ذلك دور المسلمين فى تمثل قيمتها .. ليكونوا جديرين بهذه النعمة الجامعة المانعة .

التقوى

هذه القيمة الباقية

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الحج « ٣٦ . ٣٧ » .

أراد عمر رضى الله عنه أن يبيع بدنة عظيمة .. ليشترى بثمنها عددا أكبر .. ليعم النفع بها ..

ومع سلامة النية . وسمو الهدف .. لكن رسول الله ﷺ أمره بذبح هذه البدنة .. وبالذات !!

ذلك بأن البدن شعائر .. معالم .. وأمارات .. والخطاب يظهر من عنوانه .. فلتكن إذن : سمانا .. حسانا .. غاليات الثمن .. تعظيما لدين الله.. ودليلا فى نفس الوقت على عمق الشعور بنعمة الله فيها .. ذلك الشعور الذى يسعده أن يقدم أجمل وأكمل ما عنده قربانا لله تعالى .

ومع أنها من شعائر الله تعالى .. إلا اننا مستفيدون بها :

﴿ لكم فيها خير ﴾

أجل .. لنا .. نحن بالذات فى هذه البدن خير :

قبل الذبح : لنا منها : اللبن . والصوف .. والشعر .. والنسل .. والركوب .. وعند الذبح فلنستمتع بذكر الله تعالى عليها . . فى مشهد آسر . يكون عيدا للأمة جميعاً . . واجديها . . وفاقديها . . أصحابها يأكلون منها . .

وحين يستجيبون لنداء العزيز : فيأكلون . . فإنهم . . وبنفس القوة يستجيبون لنداء القلب فيطعمون :القانع : الراضى . والمعتر . . المعترض السائل بلسان الحال . .

ولاحظ تقديم المعتر . . الراضى . .فى الذكر هنا تحريضا على العزة وتكريما لمن اتخذ إليها سبيلا . . حريصا عليها . زاهدا فى لقمة قد تعود غداً . . أما العزة فلو ذهبت . . فقد لا تعود ! وإذا لم يكن من أصحاب البدن . . فواجبه أن يكون من أصحاب العزة ! فأهم من اللقمة التى تهضم. . المقام الذى لا يهضم .

ولأن تكون صاحب عزة . . أفضل من أن تكون صاحب عزبة ؟ ! !

نفعل ذلك .. شريطة ألا ينسينا ذلك المهرجان رب هذه النعمة سبحانه وتعالى .. فلنذكره تعالى شاكرين أنعمه .. والتى منها أن سخر لنا ما هو أعظم من السباع وأقوى ..

إنه تعالى قد سخرها لنا وما كنا له مقرنين .. فليكن الشكر أن نسخر أنفسنا لطاعته .. لعبادته .. مخلصين .. والحذر من تقليد المشركين فيما

يفعلون من الذبح .. ثم تشريح اللحم منصوبا حول الكعبة التى يلطخونها بالدماء .. حذار من هذا .. فليس هو مما يرفع الى الله تعالى .. وانما الذى يرفعه سبحانه هو : العمل الصالح .. أجل لن يرفع العمل إلا من المتقين .. الذين يقون أنفسهم من تقليد أعدائهم . .

واذا كان التسخير نعمة .. فأجل منها نعمة التوفيق الى الله تعالى .. والاستجابة له .. لا للكفار ! الذين يغيظهم أن تستجيبوا لله طائعين .

وإذ يشكر المؤمنون ربهم على جزيل فضله .. فقد صاروا محسنين .. ومن جزائهم بشرى من الله تعالى تنشرح بها صدورهم .. ما داموا محسنين : يجمعون المال من حلال .. ثم يحسنون به التعامل مع الحجيج .. ثم مع أهليهم إذا عادوا إليهم سالمين . ومن صور الإحسان أن نفهم الإشارة المنبعثة بالثروة من الآية الكريمة .. والتى تشير إلى العناية بالثروة الحيوانية سبيلا إلى الطاقة .. وحماية لاستقلال الأمة التى تأكل من عمل يدهاولا تعيش عالة على غيرها .. واذا كان جميلا ان ننتصر فى معركة كروية على فريق هولندا .. فأجمل منه ان ننتصر عليه فى معركة الأمن الغذائى ..

يتوج ذلك كله : مشهد الأمة التى توجد فيها الأغنياء والفقراء .. فلم يكونوا كما أراد الملحدون فريقين يختصمون ..

ولكنهم على طريق الله متحابون :

على مكثريهم رزق من يعتريهمو ∴ وعند المقلين السماحة والبذل !!

تأملات فى سورة الحج :

﴿ من الآية ١٤ إلى الآية ٤١ ﴾ .

فى مستهل سورة الحج يأمر الحق تعالى بالتقوى .. فكانت الاستجابة متفاوتة . قابل المعاندون الأمر .. بالجحود ... وتلقاه المنافقون .. بالحذر . وشهد الجحود على المشركين بالحمق ... حين دعوا ما لا ينفع .. بل ما كان ضره أقرب من نفعه .

وسجل الحذر على المنافقين فقدانهم الإرادة .. فعاشوا فى نار التذبذب والتمزق .. ولم يستطيعوا اتخاذ القرار الحاسم .. وبينما يطوح الحمق والحذر بهؤلاء وأولئك فى الضلال البعيد .. يسعد المؤمنون بجنات تجرى من تحتها الأنهار .. جزاء ما قدموه من وعى بصرهم بدلائل الهدى .. وما امتازوا به من إدارة مكنتهم من الاستمساك بالعروة الوثقى .

﴿ **إن الله يفعل ما يريد** ﴾ .. ما يريده هو سبحانه .. بعد أن يريد الإنسان لنفسه ما يراه ... ليجزى من بعد بما قدمت يداه .

تلك هى الحقيقة . . . الخذلان للكافرين .. والهداية للمؤمنين .

ومن أعماه الغيظ فتجاهل الحق وظن به الظنون .. فليحاول أن يطفىء جمرة الغيظ المتقدة فى قلبه .. بأن يمد حبلاً .. بأقصى ما يمد الحبل... ثم ليتعلق به . قاطعا هذه المسافات البعيدة .

وليسأل نفسه أخيراً : هل أذهب الكيد ذلك النصر المأمول للمؤمنين . . وسيكون رد الواقع صارماً .

لقد ذهب الانفعال بأحلام الرجال . . وبقى الحق . . وسيبقى .

وحين ينزل المغيظ المحنق من رحلة الكيد نثاراً من الدماء الأشلاء . . فإن حقيقة القرآن الذى أنزله الله تعالى آيات بينات . . . تظل متوهجة . . متفردة مهيمنة . . . لمن يشاء أن يشفى غيظ نفسه بحسن تلقيها .. والتنافس فيها .

﴿ **وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد** ﴾ من يريد الايمان به من ﴿ **الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ..** ﴾

فإن آمنوا .. فقد اهتدوا.

وإن تولوا . . فـ ﴿ **إن الله يفصل بينهم يوم القيامةإن الله على كل شئ شهيد** ﴾ .

ولقد كان المتوقع أن يستجيب البشر وهم أرباب العقول ... ولكن فريقا هدى .. وفريقا حقت عليهم الضلالة .

بينما سجد لله تعالى : الحجر ... والشجر ... والجبال ..والشمس ... كلهم جميعاً .

فاذا استحق العاقل الجاحد العذاب فبسوء اختياره .. الذى هوى به فى حضيض هوان لا يزايله :

﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء** ﴾ .

يفعل ما يشاء سبحانه .. طبق ما يختار العبد لنفسه :

﴿ **فالذين كفروا . . قطعت لهم ثياب من نار**﴾ .

ثم يصب الحميم فوق أدمغة غشاها الجهل .. وفى قلوب عشش فيها الهوى .. وإن لحظة واحدة من الغم الذى يحتويهم لا يعدلها سرورهم فى الدنيا على طولها .. وفى نفس الوقت الذى يدخل الله ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ .

لقد كانت الدنيا من قبل سجن المؤمن .. وجنة الكافر .. تقلب فيها الجاحد منعما ... بينما كانت الطاعة قيدا للمؤمن منعه من الاستغراق فى نعيمها .. ولقد ذهبت الدنيا كأنما هى ساعة من نهار .. واليوم أما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها .

﴿ **تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**﴾ .

وهل يجزون إلا بما كانوا يكفرون ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى هو مستراد المقيم الطارىء ... ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ندقه من عذاب اليم** ﴾ .

ان الملحدين خالفوا بإلحادهم ما جعل البيت من أجله على عهد الخليل إبراهيم عليه السلام ... لقد حدد الله تعالى له مكان البيت وجعله موئلا .. وأمنا .. فطهر البيت من الأوثان .. كما طهر العقول من الشرك ... ثم أذن فى الناس بالحج فاستجابوا له طائعين .. مسرعين .. مشاة .. وعلى إبل ضناها طول السفر ... تحمل قلوبا براها الشوق الى البيت العتيق .. ليتزودوا بمنافع فى الدين ... والدنيا .

١- يجتمع أهل التوحيد ... ليغيظ الله بهم الكفار .

٢ - يتعارفون .

٣ - يتبادلون الخيرات

٤- وتتاكد الروح الاجتماعية الباحثة عن المحاويج لإطعامهم وإيناسهم . على نحو تستعيد الأمة عافيتها حين تنشط بالعطاء أعضاء كانت خاملة .

ذلك هو الخير ... يهديكم ربكم اليه ... فاشكروا نعمة الهداية ... وما أحل لكم من الأنعام ... متجنبين الشرك .. وقول الزور ... ملتزمين بالسير على الخط المستقيم ... الذى سوف يصل بكم إلى ربوة النجاة ... شاهدين على الناس .

بينما ينتهى وجود المشرك الأدبى .. وان كانت له دولة وللدولة جيش جرار .. لقد صار كمن تخطفه الطير فأصبح مزعاً فى حواصلها ... وكأنما الايمان سماء عالية ... سقط منها المشرك ... فتخطفه الطير ... لا يكاد

طائر يستولى على قطعة منه ... إلا انتهبها آخر ... ثم تهوى بها الريح فى مكان سحيق .. فى متاهة ... فلا يعود ... وذلك جزاء أعداء الله .

أما ﴿ **من يعظم شعائر الله** ﴾ فله حساب آخر ... مختلف كيفاً وكما .

إن البداية تدل على الغاية ... ولقد أطاع المؤمنون أمر ربهم : فشكروا رزق الأنعام .

وكان شكرهم عملاً ... صدقة عمت القانع .. والمعتر .. وعبادة خالصة للذى خلق ... ورزق ... سبحانه ... صادرين فى كل عمل عن عقيدة التوحيد الخالص .. غير وقافين عند الأشكال الظاهرة .

﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين** ﴾ .

وعلى رأس هذه البشارات : أن الله تعالى معهم بما أطاعوه وعظموا شعائره : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..** ﴾

وحين يجتمع الأخوان الكفور مع مثله فيما يشبه التآمر على الخلق وأهله .. فقد استحقوا غضب الله تعالى .. وحرموا أعظم نعم الوجود وهى : حبه سبحانه ورضاه .. والذى اختص به أصحاب الحق الذين ظلموا .. ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ..** ﴾ فليثق أهل الحق بنصر الله تعالى .

ولكن ذلك النصر لن ينزل من السماء سهلا ميسوراً ... فلابد من التدافع .. ولابد من الجهاد ... ثم يجيء النصر من بعد الجراح ثمرة حلوة المذاق .

ثم ليكون هذا النصر خيراً وبركة ونهضة شاملة يسعد بها العباد وتعمر البلاد .. ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ .

أما بعد :

فقد قال عمر رضى الله عنه : إن الركب كثير .. والحاج قليل ..

وكان ذلك تحذيرا .. بل نذيرا يوقظ الغافلين .. من أسارى الهوى .. ليفيقوا : فقليل هم الذين يطوفون بالبيت .. ولكن .. كثيرهم الذين «يطوفون» حول أنفسهم .. مسارعة فى هراها .. بالتفنن فى الشراء .. والجدل .. والرفث ...

ونعوذ بالله من الخذلان .

الأضحية .. وقيمة التضحية

تظل قصة الفداء درسا بليغا فى الالتزام بأمر الله عز وجل . وتنحية الهوى .. وتجاهل نداء الغريزة الملح .. كما قيل بحق :

والد ووالدة . وولد:

كل يسلم قياده لأمر الله . وإلى أ قصى حد التضحية .. حينما قال إبراهيم لاسماعيل ما قصه تعالى علينا :

﴿ **يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ .

إنه حدث خطير :

وأى رأى للولد فى ذبح نفسه ؟!!

ولكنه التمهيد لأمر الله :

فكان موقف الولد لا يقل إكبارا عن موقف الوالد: ﴿ **يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ .

ولم يكن ذلك عرضا وقبولا فحسب . بل جاء وقت التنفيذ إلى نقطة الصفر كما يقال :

والكل ماض فى سبيل التنفيذ : فلما أسلما وتله للجبين .

ياله من موقف يعجز كل بيان عن تصويره .

ويئط كل قلم عن تفسيره .

ويثقل كل لسان عن تعبيره :

شيخ كبير يحمل سكينا بيده ..

ويقتل ولده وضناه بالأخرى :

كيف قويت يده على حمل السكين ؟!! .

وقويت عيناه على رؤيتها فى يده ؟!!.

وكيف طاوعته يده الأخرى على تل ولده على جبينه .

إنها قوة الإيمان ..

وسنة الا لتزام

وها هو ذا الولد طوع يده يتصبر لأمر الله ويستسلم لقضاء الله .

﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ والموقف الآن :

والد .. بيده السكين .

وولد .. ملقى على الجبين .

ولم يبق إلا توقف الأنفاس للحظة التنفيذ .

ولكن رحمة الله أوسع .. والفرج من عنده أقرب .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين ﴾

جزاء الإحسان :

لقد كانت عزمة الوالد وولده معا .. كانت عزمة تتضاءل دون علىّ مكانها الآفاق .. والأفلاك .. وكانت همة وصلت من القوة حدا ليس وراءه وراء ..

إنها قمة الإحسان يصل إليها الخليل وولده فكان جزاؤهما من جنس عملهما : فقد ذكر فداءه بما جعله سنة باقية يذكر بها الذكر الجميل . على مر الأيام . وتعاقب السنين .

وكان ذلك .. بذبح عظيم ..

بكبش من الجنة عظيم .. (عظيم فى الجنة . والقدر . والرتبة . وسمين ..لأنه :

مقبول . ومستمد به .. ومجعول دينا إلى آخر الدهر) .

﴿ فى الآخرين ﴾ عصى على النسيان

ثم جاء الفرج :

أجل .. وافى الفرج .. بعد الشدة ..

وظفر الوالد بالأمل .. بعد اليأس ..بعد المحنة البينة الصعوبة .. فلا محنة أصعب منها .

إنقاذ البشرية :

وكان هذا الذبح العظيم إنقاذاً للبشرية كلها بعد ذلك ..

يقول ابن عباس رضى الله عنه : (لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة .. وذبح الناس أبناءهم)

من حكم الأضحية :

وإذن .. فقد كانت الأضحية سنة يشكر البشر بها نجاتهم من الموت فى شخص اسماعيل عليه السلام .. فكانت سنه باقية .. نجدد بها أثمن اللحظات بركة فى عمر الإنسان.

وإذا كان صلى الله عليه وسلم مأمورا باتباع ابراهيم عليه السلام :

﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ .

فهو مأمور باتباعه ونحن معه فى سنة الذبح سنة الفداء .. والنجاة من البلاء .

الخطوة الأولى :

روى مسلم من حديث أم سلمة رضى الله عنها :

(إذا رأيتم هلال ذى الحجة . وأراد أحدكم أن يضحى . فليمسك عن

شعره وأظافره)

(لا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئا حتى يضحى) .

والحكمة فى ذلك :

تشبها بالمحرم .. وليدخل بهذا التشبه جو الإحرام من أول يوم .. ثم هو إبقاء على كل أجراء الجسم .

رجاء أن يعتق الجسم كله من النار .

وهكذا .. إذا قعدت بالناس أقدارهم .. فلم يكونوا هناك فى حمى البيت العتيق .. فليكونوا هناك بقلوبهم ... ليتحقق معنى الوحدة الإسلامية على أوفى معاينها .

من خصائص الاضحية :

من شرط الأضحية بصفة عامة : سلامتها من كل عيب ينقص اللحم . وتتضاءل فيه قيمة الجمال :

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : (أربعة لا تجزىء فى الاختصاص :

العوراء البين عورها

والمريضة البين مرضها

والعرجاء البين ضلعها

والعجفاء التى لا تنقى

رواه أبو داود . والترمذى والنسائى وأحمد .

والمقصود بالتى لا تنقى هو : التى لامخ لها لضعفها وهزالها أى : لا شحم لها .

فالعوراء الواضحة العور :

يذهب الجمال بذهاب عينها .. ثم هى لا ترعى الا فى مساحة محددة من جهة عينها الباصرة فقط ..

ومن ثم .. تصاب بالهزال لو بقيت

وكذلك العرجاء .. التى يسبقها القطيع إلى الكلأ البكر . الطيب . ولا يبقى لها إلا النفاية . التى لا تنشىء لحما .. ولا تكسو عظما .

ومثلها المريضة التى يحرمه مرضا من العشب الطيب .. وقد تعطش .. فلا تقدر على طلب الرى ..

وقد (ضحى - صلى الله عليه وسلم - بكبشين أملحين أقرنين : ذبحها بيده الكريمة : سمى وكبر .. ووضع رجله المشرفة على « صفحاتها »)

أى على صفحة العنق : أى جانبه : ليكون ذلك أثبت له . ثباتا يتمكن به من الذبيحة .. حتى لا تضطرب .. فتمنعه من إكمال الذبح .. وما يترتب على ذلك من :

تعذيبها .. وايذائه هو . ثم فشل المهمة .

قال رضى الله عنه :

(إذا اشتريت أضحية فاستسمن : فإن أكلت أكلت طيبا وإن أطعمت أطعمت طيبا ..)

المحلى لابن حزم ج ٧/٣٦١

ومضيا مع هذا الاتجاه كان الصحابى يفضل ان يضحى بالجذع [١] من الضأن .. ولا يضحى بالمعز المسن .

إنه لا يكفى أن يكون اللحم وافرا .. فلابد دمع ذلك من أن يكون طيبا:

أعنى : ناضجا .. سهل الهضم .. جميل المذاق .

نوع الأضحية :

الإبل . والبقر . والمعز ..

فلا تجوز الظباء مثلا .

ثم . لماذا الإبل والبقر والمعز ؟

لأنها أطيب لحما .. وأوفر لحما ..

وما يترتب على ذلك من التوسعة على عدد أكبر من الفقراء ..

---

(١) الجذع : بفتحتين : ولدة الشاه فى السنة الثانية ولولد البقرة فى الثالثة . وللإبل فى الخامسة .

وهذا ما تؤكدة السنة المطهرة :

فيستحب فى الأضحية أن تكون أسمن ما عندك وأحسنه وأعظمه ... لأنها مطيتك إلى الآخرة .. وكلما اقتربت من الكمال .. بلغت المنزل .

وكان ﷺ هو القدوة الحسنة فى هذا الباب .

قالت عائشة رضى الله عنها : (إن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن . فحيل) وهو الذكر القوى - رواه أبو داود والنسائى .

ولا تضر العيوب التى لا تؤثر فى اللحم : كما وكيفا : ككسر القرن مثلا .

وعن البعض :

لا تجزى البخراء : منتنة رائحة الفم ولا المجنونة : لأنها تدور فى المرعى ولا ترعى إلا قليلا .. فتهزل .. فتمرض . والمرض مفسد للحم

والأطيب لحما أفضل ..

والأطيب لحما عند الشافعية : الذكر .. والأملح - الأبيض - والأقرن أفضل من غيره

من الذبح .. إلى النحر :

حاول المغرضون اتهام الإسلام بأن طريقة الذبح فى منهجه .. لا

رحمة فيها بالحيوان ..

مع أن الامر عكس ذلك تماما .. فالذبح أو النحر كلاهما شارة دالة على حضارة الاسلام الذى اتسع معنى الرحمة فيه حتى تجاوز الانسان إلى مملكة الحيوان ..

فالذبح هو :

قطع الحلقوم .. والمرىء .. والودجين ..

والنحر هو :

طعن الإبل فى كبتها (موضع القلادة من العنق) وهو الموضع الذى تصل منه آلة الذبح إلى القلب .. فيموت الحيوان بسرعة .. ولا يتعذب إلى بجانب خروج الدم كله .. حماية للآكلين من أضرار ما يبقى منه فى الذبيحة!

وفى الذبح :

تطرح الشاة على جنبها الأيسر .. مستقبلة القبلة .

وقد نحر ﷺ (الإبل : قائمة . معقولة اليد اليسرى) متفق عليه ..

ويعنى ذلك أن الاقتصار على تقييد يدها اليسرى فقط .. يتيح للذبيحة فرصة الحركة .. حتى يخرج الدم كله .

ولقد صار هذا جزاءاً من منهج الإسلام :

يقول ﷺ (إن الله كتب الإحساس على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا

القتلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا .. الذبحة وليحد أحدكم شفرته . وليرح ذبيحته) رواه مسلم . كتاب الصيد ج ١٣

والمقصود براحة الذبيحة :

إحداد السكين .. لتكون أسرع وأقطع . ثم تعجيل إمرارها . تفاديا لتعذيبها ولا يحد السكين بحضرة الذبيحة . ولا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها جرا .. وليقدها إلى الذبح قوداً جميلاً

وقد ورد :

إذا ذبح أحدكم فليجهز : أى : ليسرع ذبحها ويتمه ..

وفى رواية : (.. ولا يقطع رأسها . ويرمى بها) رواه النسائى والحاكم . وصححه .

وبعد الذبح :

يستحب التربص بعد الذبح قدر ما يرد ويسكن من جميع أعضائه . وتزول الحياة عن جميع جسده .

ويكره أن يسلخ قبل أن تبرد وتسكن .

الرسول يتابع و يحاسب :

روى : أن جزارا فتح بابا على شاة ليذبحها فانفلتت منه .. حتى جاءت النبى ﷺ فأتبعها . فأخذ يسحبها من رجلها .. فقال لها النبى ﷺ :

أصبرى لأمر الله . وأنت يا جزار : فسقها سوقاً فيقا » الترغيب والترهيب برقم ١٦٦٢ وفيه كلام .

وتأمل : كيف كان للشاة شخصية اعتبارية تنال حظها من شرف خطاب النبى ﷺ لها .. لتدرك إلى أى حد يكون اعتبار الإسلام .. الذى هو بناء الله تعالى فى أرضه .. ويا ويل من يعرض بنياتة للخطر .

والتعبير النبوى هنا يؤثر لفظ الموت . على «الذبح »

(ويلك . قدها إلى الموت قودا جميلا) إن لفظ الذبح لا يعطى معنى الفناء .. الذى يعطيه لفظ « الموت »

والمغزى : لأنها بعد الذبح باقية ينتفع بها .. حتى ولو كنت تقودها الى الفناء .. فإن ذلك لا يسقط حقها فى الرحمة .

متى يكون الذبح :

والأفضل الذبح فى النهار ... ويجوز الليل مع الكراهة { راجع نيل الأوطار ج ١٣٦/٥

لأن الليل تتعذر فيه التفرقة بين اللحم الطازج الطرى .. وغيره .. ومن ثم يفوت بعض المقصود من الاضحية ثم إن الأضحية شعيرة هى جزء من فرحة العيد .. وإذن فأولى أن تكون فى وضح النهار .. لا فى سجوة العيد . ابتهاجا بها .. و إشاعة للسرور ..

ومبالغة فى اشاعة السرور قرر العلماء أنه : يستحب ربطها قبل النحر بأيام .. لما فى ذلك من الاستعداد . والتباهى بالرغبة فيها كما أن من السنة أن يقلدها .. لأن ذلك شارة تعظيمها .

قيمة التضحية :

وتبدولك قيمة التضحية ..

فالقادر مكلف أن يختار أضحية .. لا كيفما اتفق .. وإنما عليه أن يتخيرها .،. لتكون فى النهاية صفوة الصفوة .. مما يدل على إيمان المضحى الذى لا يسحبها من باب من « عتبة السوق » .. وإنما يدخل فى عمق ليختار مكلفا ...

إنه اختيار يستهدف :

الجميلة .. بهجة للعين ..

الوافرة اللحم .. توسعة على الفقراء ..

الطيبة اللحم .. متعة للآكلين .

أما غير القادر .

فان الإسلام يسامحه .. شريطة ألا يكون راغبا عنها .. زاهدا فيها ..

وإنما هو على ما قيل : العين بصيرة واليد قصيرة ..

وياليته كان مع المضحين فيفوز فوزا عظيماً

التزامهم بالقرآن :

كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .. يلزمون أنفسهم بأدب القرآن عند الذبح ..

فالله عز وجل يقول : (فإذا وجبت جنوبها) وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول عند الذبح :

باسم الله .. الله اكبر

يقول ذلك تنفيذا لما جاء فى الأية الكريمة (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ..)

ثم قال سبحانه . فاذكروا .. ولتكبروا .

فكانوا يذكرون . ويكبرون .

الأضحية وبشائر النصر :

فإن فى الاضحية .. وما ضحت عليه من قيمة التضحية ما يبشرنا بنصرنا على عدونا .. بنى اسرائيل .. فإن قيمة التضحية المغروسة فى ضمير أمتنا .. لهى سلام النصر الذى هو آت ريب فيه ..

وفى نفس الوقت فهى نذير هزيمة عدونا الذى أفرغ من هذه القيمة .. كما تحدثت آيات سورة المائدة : فى قوله عز وجل .

﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم

أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإن لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ﴾

وتأمل من معاني الآيات :

١ – التذكير بنعمتي الدنيا والآخرة : الملك . والنبوة

٢ – تكليفهم بدفع زكاة يملكون نصابها من هذا الملك العريض ..

٣ – فقدان قيمة التضحية .. ونكوصهم على أعقابهم حتى يخرج الجبارون منها .. ويأخذوها غنيمة باردة .

٤ – يؤثرون ذلك مع وجود ما يشجعهم على الدخول :

أ – فهي الأرض المقدسة .

ب – وقد كتبها الله لهم .. وضمن لهم النصر

جـ – ثم إبراز ما ينفرهم من الهروب

٥ – ورغم تشجيع رجلين منهم لهم .. أضافوا إلى الجبن سوء الأدب في قولهم .

﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا .. ﴾

ويبقى بعد ذلك يستيقن الذين تسلحوا بقيمة التضحية أن المستقبل لهم بإذن الله .. وأن النصر قد يتأخر قليلا أو طويلا ولكنه آت لا ريب فيه .. وعندما تدفع ثمنه الغالى .. وإنا لدافعون .

أما بعد :

فقد يلح الإعلام المعادى .. ليكسر فى أمتنا إرادتها .. وقد يلوم بما يملك من عدة وعتاد .. فى محاولة لضرب الروح المعنوية فى قلوبنا .. ولكن هيهات .. لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ البقرة «١٤٣» .

فالله سبحانه وتعالى يمن على هذه الأمة المؤمنة بأن جعلهم واسطة العقد بين البشر .. لقد كانوا الشهداء عليهم ..

واذا كان اليهود هم السفهاء .. خفاف الأحلام .. فإن المؤمنين هم العقلاء . العقلاء الراشدون .. الذين يتربعون على « المنصة » ليحكموا على الناس .. أو يحكموا لهم .. أنهم « الشهداء » أعنى :

ليسوا متهمين فى القضية !!

المتهمون هم : اليهود

ومعروف أن « الشاهد » فى قضية ما .. هو فى الموقف الأقوى ..

بينما المتهم فى الموقف الأضعف دائما ومن ثم .. فلم يكونوا مرشحين لدخول الأرض المقدسة بهذه الأوهام المكدسة !!

ونحن اليوم مطالبون بشكر الله تعالى على نعمة القيادة والريادة .. لنظل دائما طليعة الركب الميمون .

عيد الأضحى

ودروس فى الدعوة .. والاقتصاد

إذا كنا نتخذ من ذكرى انتصاراتنا أعياداً .. ننوه فيها بما أنجزنا .. فكيف يكون احتفالنا بميلادنا .. بحياتنا التى ننعم بها ؟

إنه احتفال لو تعلمون عظيم .. وذلك هو احتفالنا اليوم .. فى ذكرى فداء أبينا إسماعيل عليه السلام .. والذى ولد بالفداء من جديد .. فولدنا معه أيضاً !

ولدنا فى الوقت الذى صابر فيه الوالد الموقف .. فاتخذ قرار الذبح .. ثم استسلم الصبى الصغير لأمر الله .. فلما أسلما معا .. جاءت الحياة .

وهكذا .. تكون الأمة جديرة بالحياة .. فى الوقت الذى تضحى فيه بهذه الحياة !!

من أسرار العيد :

تمت نعمة ربنا كمالا بعيد الأضحى :

نعمة التوحيد .. ونعمة الوحدة .. ثم غفران الذنوب .. غفرانها : على اليقين .. لاعلى الظن والتخمين .

وقد أفاض علماؤنا فى بيان نعمة الوحدة والتى كان من مظاهرها : ذلك الرمى المشترك لهذا العدو المشترك .. رمزاً لإحباط سعيه .

بإجماع الأمة على رفضه .. وعندما يقف الحاج بعرفات لايشعر بأنه أبيض وغيره أسود ولابأنه تقى ومن سواه شقى .. ولكن الشعور الغامر هو الإحساس بالفروق تذوب بين البشر والحدود تزول بين الأمم ، وبالشعوب تتحد فى أمة ، وبالأخوة تلتقى فى أسرة شعور بالدين الموحد والشريعة الجامعة .

ثم يعود الحجيج من عرفات وقد تضوعوا بعبق الجنة ، وتخلصوا كما قيل من عفونة الدنيا ورطوبتها ، بنشر قلوبهم فى جبل عرفات فزايلها الصدأ المتراكم عليها طويلاً ، ثم عادت بمنهج ضارعة إلى الله تعالى ، وقلوب مقبلة عليه ، وأرواح نجت من كيد الشيطان بالعتق من النار ، فى مهرجان للمغفرة لايدع لمؤمن ذنبا ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « مارئى الشيطان يوما هو فيه أصغر ، ولأدحر ، ولاأحقر ، ولاأغيظ منه فى يوم عرفة» ومن ثم يحق للمسلم أن يقطف الثمر ويحصد الزرع بعيد الأضحى تعبيراً عن الفرحة الكبرى .

من أسرار الأضحية :

من خصائص الأضحية كما حددتها السنة المطهرة ، أن تكون سليمة جميلة المظهر ، وذلك كله تعبيراً عن عمق الإيمان فى قلب المضحى والذى يفرض عليه أن يضحى بأجود ماعنده .

وقد ضحى ﷺ بما استوفى كل هذه الخصائص . بكبشين لابكبش

واحد .. أقرنين .. أملحين .. ثم قال « هذا عنى وعن أهلى ، وهذا عن فقراء أمتى » وهكذا يعبر جمال الظاهر عن جمال الباطن ، فلم يكتف ﷺ بالضحية الكاملة الغالية ، الجميلة ، ولكنه عبر عن جمال باطنه حين ناب عن فقراء أمته فضحى عنهم جبرا لخاطرهم ، وتوسعة لمعنى العطاء ليكون العيد شاملاً ، ولينضوى الواجدون والفاقدون جميعا تحت رايته .

ونلفت الأنظار إلى توجيه السنة المطهرة بأن تكون قسمة الأضحية ثلاثية : المضحى يأكل من أضحيته ، ثم يهدي إلى جاره الغنى ، وقبل ذلك يهدى إلى جاره الفقير ، يأكلون جميعاً من نفس الطعام وفى نفس اللحظة ، ولو كان الإهداء مقتصراً على الفقير فقط لبرز معنى التصدق ، وماقد يسببه من إحراج للفقير ، أما والجميع يأكلون ، فهذا ممايرفع معنويات الفقير وتصير الأضحية فى ظل هذا المعنى كما قيل « نسبا يجمع على المودة أو حلفا يجمع على التناصر » . ألا وإن الغلمان حين يجتمعون حول الأضحية والدم يتفجر منها ، فإنهم يشعرون بمعنى الجرأة وتزايلهم أوهام الخوف ، ثم يحسون بما توحى به الأضحية من شكر الله تعالى أن سخر لنا الحيوان ثم أعاننا على إحياء سنة أبينا إبراهيم عليه السلام ، ثم بموقف الداعية المربى ﷺ الذى لايكتفى بالاحتفال بالعيد كلاما بليغاً ، ولكنه يتقدم أمته ليكون أول المنفذين لمايأمرهم به ، والأمة الواعية لاتمضى وراء عشاق الكلام لكنها تمضى وراء الذين يفعلون مايقولون .

وياله من موقف يتحرر فيه الإنسان يوم العيد .. كيف ؟

إن الإسلام ينتقل بك من موقف تستغني فيه بالشئ تملكه .. إلى موقف أفضل منه هو: الاستغناء .. عن هذا الشئ .. وإنه لفرق لو تعلمون عظيم !!

عزة المؤمن :

ولاحظ تعبيره ﷺ عن الأضحية « بالكبش » .. ومايشير إليه من عناية بالمناسبة الجليلة التى تعلى من قدر الإنسان .

فكتب اللغة تقول : الكبش : سيد القوم .. ورئيسهم .. وقائدهم .. والذى صار بهذه الخصائص أحق الناس بحمايتهم ..

لقد فدى الله تعالى اسماعيل بذبح عظيم .. تقديراً لقدر الإنسان الكريم علي ربه تعالى .. وهكذا يجب أن تكون الأضحية .. لأنها تعبر عن قيمة الإنسان .. والذى كانت هى فداء له ..

ومن هنا يقرر الفقهاء - أخذا من روح السنة المطهرة - ضرورة أن تكون على أوفى معانى السلامة .. والجمال .

وقد حاول عمر رضى الله عنه أن يشترى أضحيتين بثمن أضحية غالية الثمن .

ولكنه رد إلى الحق الذى يقرر فضل الأضحية المتميزة .. فالملحوظ فيها الكيف .. وليس الكم ..

فإذا أضفت إلى ذلك كونها ذكرا ومن الضأن تبين لك بعد آخر من أبعاد الاحتفاء بها ..

فلحم الذكر أطيب .. وأمتع من لحم الأنثى .. كما قال الخبراء الذين سألتهم .. فأكدوا بذلك حكمة السنة .

ولعله لايكون استطرادا أن نضيف إلى ماسبق مايجلى المعنى المراد هنا وهو: لو كان معك ألف دينار .. وأمكنك أن تشترى بهما عبداً واحداً متميزاً لتحرره .. فإن الإسلام يقول لك .. بل اشتر بالألف عبدين اثنين توسيعا لقاعدة الحرية ..

وهكذا تدور الأحكام كلها على محور الكرامة الإنسانية :

أ- فكون الأضحية .. كبشاً .. وذكراً .. متميزاً .. تقدير للمحتفى به وهو الإنسان ..

ب- وتحرير عبدين توسيع لقاعدة الحرية .. التى هى مناط الكرامة الإنسانية!

*****

ونعود إلى كتب الفقه .. والتى فصل الفقهاء فيها القول تفصيلاً :

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : أى الأعمال

أفضل ؟ قال : « أنفسهن عند أهلها . وأكثرها ثمنا .. »

قال الفقهاء :

أفادت هذه الرواية : أن عتق أنفس الرقاب أفضل من عتق غير الأنفس .

وهذا فيما إذا أراد أن يعتق رقبة واحدة .

أما إذا كان معه ألف درهم . وأمكن أن يشترى رقبتين مفضولتين . أو رقبة نفيسة .. فالرقبتان أفضل .

وهذا بخلاف الأضحية : فإن التضحية بشاة سمينة أفضل من التضحية بشاتين دونها فى السمن .

قال الشافعى رحمه الله : فى الأضحية : استكثار القيمة مع استقلال العدد .. أحب إلى من استكثار العدد مع استقلال القيمة .

وفى العتق : استكثار العدد . مع استقلال القيمة أحب إلى من استكثار القيمة مع استقلال العدد .

لأن المقصود من الأضحية اللحم .. ولحم السمين أطيب . وأوفر .

والمقصود من العتق : تكميل حال الشخص وتخليصه من ذل الرق . وتخليص جماعة أفضل من تخليص واحد .

الرحمة السابغة :

ولاحظ من دقة السنة الكاشفة عن رحابه سليقة الرحمة فى قلب الرسول العظيم حين توحى السنة المطهرة بضرورة إضجاع الأضحية على جنبها الأيمن قرأت إن النوم الصحى ماكان على الجنب الأيمن ، لأن القلب يكون معلقاً وأقل عمقا فى منامه . بخلاف الأيسر .. وعلى أى حال فهو راحة للحيوان لايعنته .

إلى جانب أن يكون الجزار إنسانا : فلايمسك برجلها ..

أولاً : لراحتها .. وثانياً : ليتمكن الدم بحركة الرجل من الخروج ؟!(١)

إن الأضحية سنة .. والذبح قضية محسومة .. لكن التنفيذ لابد فيه من مرونة ورحمة .

وهذا مافعله إبراهيم عليه السلام حين عرض على اسماعيل أن يذبحه.. بطريقة تعينه على القبول .. إنه لاتردد فى أمر الله . وبنفس القوة : لابد من الشفقة فى التنفيذ !

ولعل هذه الدروس تبلغ من أنفسنا مكان الإقناع .. ذلك بأن العنف .. والتهور فى التطبيق .. ضياع للحكمة من وراء شعائر الله سبحانه .

---

(١) أخر مسلم - كتاب الصيد « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبيحة وليحد أحدكم شفرته . وليرح ذبيحته ، وإذن : فليشحذ شفرته بإحدادها . وتعجيل إمرارها ولايحد السكين بحضرة أخرى . ولايجرها إلى مذبحها وليقدها قودا جميلاً .

وتصور معى ذلك المندفع الثائر .. الماضى إلى هدفه بلا روية .. ماذا يحدث؟ إنه ثائر .. وهو مخلص .. لكنه قليل الخبرة .. ومن ثم .. تكون له أخطاء .

ثم يحاول إصلاح هذه الأخطاء .. أو الأخطار .. فلايستطيع .. فلاخبرة له تسعفه بضمانات النجاح .. ومن ثم يحاول الإصلاح .. بالسلاح .. ليكون فى النهاية طاغية ! .. لايريد للناس أن يعيشوا .. لأن فى حياتهم موته .. ولايريد لهم أن يموتوا .. ففى من .. يتحكم ؟!!

شبهة وردها :

اعترض السطحيون والمغرضون على طريقة الذبح الإسلامية .. غافلين عما سبق بيانه من حكم بالغة . . تؤكد الوجه الحضارى لتعاليم الإسلام فى هذا المجال ونبادر أولاً فنقول :

لماذا لاتعترضون على طريقة أسيادكم الأجانب .. الذين يقصفون الرءوس بالمقصلة .. أو يطيحون بها بالرصاص .. أو يسكتونها بالصدمة الكهربية .. وإنها لسخرية مردودة على أصحابها .. ويتكفل بالرد عليها المنصفون الذين قالوا موضحين ماتمتاز به طريقة الذبح الشرعية والتى نلزم بها المغرضين كلمة التقوى :

الواقع أن طريقة الذبح الإسلامية صورة من تكنولوجية الإعجاز العلمى الذى لم يدركه العلم الحديث إلا أخيراً بعد أن عرفت كيف يميز بين :

أ- الدم الفاسد فى الأوردة .

ب- والدم الصالح فى الشرايين .

جـ- وكيف أن دم الوريد وحده هو الذى يحمل السموم القاتلة فى الجسد والتى تعرف باسم « حامض البوليك » .

ويشترط الإسلام : قطع الوريد الرئيسى وحده فى رقبة الحيوان .. دون فصل الرأس عن الجسد حتى يتدفق الدم الفاسد خارجاً من هذا الوريد فتتخلص منه الذبيحة ليصبح لحمها طيباً .

والدورة الدموية لاتسير سيرها الطبيعى .. إلا إذا كان القلب ينبض بالحياة وهو لاينبض بالحياة إلا إذا كان المخ متيقظاً واعياً يصدر أوامره للقلب بالضخ وإذن فلو بترت الرأس أو ضربت الذبيحة لتوقف القلب بالصدمة العصبية فوراً فتوقفت الدورة الدموية تماماً .

فيتجمد الدم الفاسد فى الذبيحة تماماً فى الأوردة وفى سائر الجسم ولايخرج .. ويسمم اللحم حينئذ ولذلك يحرم القرآن كل ذبيحة لايخرج دمها من الوريد بالذبح .. قال تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة ..** ﴾ الآية .

فالمنخنقة التى ماتت بالخنق ، والموقوذة التى ماتت بالضرب .. والمتردية التى ماتت بالسقوط .. والنطيحة التى ماتت بالنطح وكلها توقفت فيها الحياة بالصدمة العصبية .. التى :

١- شلت المخ .

٢- فتوقف القلب .

٣- فتجمد الدم .

٤- ففسد .

ونتساءل أخيراً فمن أجدر بالسخرية :

الملحدون .. أم المؤمنون - فاليوم الذين آمنوا من الساخرين يضحكون. يضحكون من الذين يحتمون بكل جلد أجرب ويلوذون لكل لون باهت .

ونقول لهم ماقاله المنصفون : (إذا أردت السرور فاعتن بصحتك وإذا أردت السعادة فاعتن بخلقك وإذا أردت الخلود .. فاعتن بعقلك وإذا أردت ذلك كله فعليك بالدين .. الذى يحقق لك ذلك كله) وطريقة الذبح الإسلامى واحدة من شواهد ذلك فللحالة النفسية للحيوان تأثير على طعم اللحم .. وعلى سلامته ومن ثم قررت السنة الشريفة : أن لايرى الحيوان السكين فى يد الجزار .. وأن يحسن الذبح .. وأن لايرى الحيوان .. حيواناً آخر يذبح أمامه ..

معاذة العنبرية

ودروس فى الاقتصاد والتنمية

فى الوقت الذى تتقطع فيه الأسباب الواصلة بين الأرحام .. كان ابن عم معاذة الأرملة يطرق بابها يوم العيد ليهدى إليها أضحية .

أولاً : تجديداً للصلة الجامعة .

ثانياً : حماية لها من طمع الطامعين فى أنوثتها بعد غياب العائل .

وفى الوقت الذى ترى مهمومة حزينة تفكر كيف تستثمر فى الأضحية كل شعرة .. وكل بعرة .

فى هذا الوقت نسمع عن فتيات مسلمات مهتمات بالأجدى فى صلاة العيد أتكون فى المسجد أوفى الخلاء ثم لاتلحظن من إيجابيات العيد مايخفف آلام البشر .

وقبل أن تبرز فكرة استغلال لحوم الأضاحى .. وإنشاء مصانع الاستثمار .. كان هناك رجال من سكان الصحراء يحسنون تدبير هذه اللحوم .

فلما غابوا .. بدت مسؤولية المرأة عن تحمل هذا العبء .

ولقد كانت معاذة العنبرية هذه المرأة المؤمنة العاملة الأرملة التى ضمت إلى تجربتها حسن فهمها لحكمة الإسلام من وراء أحكامه .

ولنستمع إليها وهى تحكى قصتها : قالت :

أهدى إليها ابن عم لها أضحية فرئيت مهمومة .. حزينة .. فلما سئلت عن ذلك قالت أنا امرأة أرملة .. وليس لى قيم ولاعهد لى بتدبير لحم الأضاحى وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاه .. ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها ولكن المرء يعجز لامحالة ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر إلى تضييع الكثير .

أما القرن : يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف فيعلق عليه كل ماخيف عليه من الفأر والنمل والحيات .

وأما المصران فإنها الأوتار المندفة « والمندفة والمندف مايندف به الصوف » .

وأما القحف قحف الرأس .. بكسر القاف « أعلى الدماغ والجمع أقحاف مثل حمل وأحمال » واللحيان « تثنية اللحى وهو عظم الحنك » واللحاء ماعلى العود من القشرة .. وأما العظم فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق . ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح بدل المبيدات الحشرية اليوم .. وحتى يظل الهواء سليماً والجسم صحيحاً والتفكير سديداً .

ثم.. وللإدام .. وللمقلاة .. وغير ذلك . ثم تؤخذ هذه العظام « وقوداً » فيوقد بها فلم ير الناس وقوداً أصفى لهيباً منها .

وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة مايخالطها من الدخان .

وأما الإهاب : فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لاتدفع وأما الفرث والبعر . فحطب إذا جف عجيب .

ثم قالت : بقى علينا الانتفاع بالدم . وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه .

وإن له مواضع يجوز فيها ولايمنع منها وإن لم أقع على عدم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كيه فى قلبى وقذى فى عينى وهماً لايزال يعاودنى ثم ذكرت أن عندى قدوراً شامية جداً وقد زعموا أن ليس شئ أدبغ ولاأزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم .. وقد استرحت الآن إذ وقع كل شئ فى موضعه ..

ثم سألها الشيخ بعد ستة أشهر فقال لها كيف كان قديد تلك الشاه . وقالت بأبى أنت لم يجئ وقت القديد بعد .. ولقد نجحت .. معاذة العنبرية فيما رسب فيه فتيان .. وفتيات لانشك فى إخلاصهم .

لقد حضرت معركة بين شابين حول مصطلح .. مصر هبة النيل ومدى مطابقته للواقع .

وقلت للشابين معاً : تعلموا من تاريخكم .. وليكن دوركم الحقيقى علي ساحة التنمية وزيادة النتاج .. وجودته أيضاً .

هذا هو ورد النيل يقتل الثروة السمكية .. ثم يمتص نسبة كبيرة من الماء .. نحن أحوج مانكون إليها .. فلاتجعلوا قضيتكم الأولى كلمة قالها .. هيرودوت .. ولاتكن صلتكم بالنيل إنه الطهور ماؤه .. الحل ميتته .

ولكن حاولوا أن تتعاملوا مع الماء .. باستثماره .. واستغلال مافيه . لاتستصعبوا المهمة .. فليس هناك مستحيل .

وتعلموا من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .. وفى عيد الأضحى بالذات لقد أمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج .

ولما بدأ بنفسه فنادى .. كان على الله تعالى أن يجيب . فجاء الناس من كل فج عميق .. وصدق القائل :

« وإذا كانت سنة النحر تذكرنا بتلك المعانى المقدسة فإنها تذكرنا أيضاً بأن الدماء التى تراق فى هذه السنة إنما كانت فى الأصل فداء لدماء الإنسان وفى هذا مايشير إلى أن حياة الإنسان لاينبغى الاعتداء عليها وأن الدماء البشرية لاينبغى أن تراق إلا فى مشروع .. فمغزى الأضحية فضلاً عن معانى التسليم والطاعة والخضوع لله تتضمن الدعوة إلى حفظ الحياة الإنسانية وفدائها بكل مرتخص وغال ، وبذلك تلتقى سنة الأضحية مع معانى التكرم والتشريف للإنسان فى الإسلام ، إن الذين يهدمون الحياة ويريقون الدماء استجابة للأهواء على اختلافها قد باءوا بالطرد من رحمة الله وحق عليهم الخلود فى نار الجحيم . وصدق رسول الله ﷺ ، إذ يقول «هذاالإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » والهدم فى هذا الحديث

الشريف ينسحب معناه على الهدم المادى والمعنوى أى أنه يقرر فى إيجاز رائع كرامة الإنسان ووقايته من كل مايناله من هذه الكرامة .

ألا ماأعظم الإسلام فى نظرته إلى الإنسان وتقديره ، وماأتعس هؤلاء الذين يمتهنون كرامة الإنسان .. ويسلبونه حق الحياة الحرة الكريمة . ﴿ **أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾

وبعد :

فمن معاذة العنبرية .. إلى ابن العربى

ذكروا أن أبا بكر بن العربى . قاضى أشبيلية رأى ناحية من سور المدينة متهدماً .. يحتاج إلى إصلاح .. ولم يكن فى الخزانة مايفى بهذا الإصلاح

ففرض على الناس جلود ضحاياهم .. وكان ذلك فى عيد الأضحى . فأحضرها الناس جميعاً .. وهكذا يتعاون الحاكم والمحكوم على البر والتقوى.




الهجرة

والإعداد للمستقبل




دور الشباب فى الإعداد للهجرة

تمهيد :

الإنسان عدو مايجهل .. يألف حياته اليومية الدارجة .. مستكيناً إليها .. وكل محاولة لنقله من هذه الحياة الرتيبة .. يقاومها بشدة .. وإذا استكان أحياناً .. فرغم أنفه ، وعلى مضض .

ذلك بأنه يتصور ذلك المجهول غولاً يتربص به . ثم توسوس له نفسه بما قد يخبئه ذلك المجهول من شرور لاوجود لها إلا فى خياله هو .. وهذا هو الإنسان .. فى غيبة الإيمان .

أما فى صحبة الإيمان .. فإنه يكون خلقاً آخر .

إنه لم يعد يخاف إلا الله تعالى .. ومن ثم خافه كل شئ . فلامسوغ هناك يحمله على الخوف من أحد .

وفى ضوء هذا الإيمان انطلق في كل اتجاه .. متحملاً مسؤولية الإيمان وتلك ميزة الإسلام الكبرى .

فقد استنهض همة المؤمن . فاستيقظت .. ثم اقتحمت ذلك المجهول الذى أسفر فى النهاية عن منافع جمة ماكان ليشهدها لولا الإسلام . وهذا بعض مايشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ النساء « ١٠٠ »

فإذا كانت الهجرة خروجاً على المألوف .. فقد حقق المسلم بها انتصارات أرغم بها أنوف أعدائه .

لقد فتح بها صفحة جديدة فى تاريخ الدنيا كلها .

وإذا حفظ الله تعالى عقيدة المسلمين بالهجرة إلى الحبشة .. فقد تأسست بالهجرة إلى المدينة للإسلام دولة .

وإذا فزعت هجرة الحبشة قريشا فأرسلت إلى النجاشى فى محاولة لرد المهاجرين إلى أهليهم .. فقد كانت هجرة المسلمين إلى المدينة أشد وقعا فى حس قريش . لأنها تعنى أن المسلمين صاروا ولهم قضية .. قضية يلتفون حولها . ويعملون من أجلها .. بعيداً عن متناول أيديهم .. وهذا هو الذى حدث بالفعل .. عندما بزغت حقيقة الإسلام على أرض المدينة ممثلة فى دولة تستكمل عناصر الدولة الراشدة بهذا المسلم الذى وطد الرسول ﷺ صلته بربه .. عن طريق المسجد .. ثم بأخيه المسلم .. بشرعة المؤاخاة . ثم حدد علاقته بالأجانب عن طريق معاهدة اليهود وهكذا تمت الدولة الجديدة كمالا .

من حكم الهجرة :

كان الصراع فى مفتتح الدعوة محتملاً .. ثم تحول قبيل الهجرة إلى مؤامرة تستهدف شخص الرسول ﷺ .

ويعنى ذلك دخول المعركة منعطفاً يمكن أن تحرم العالم ممن جاء لينقذه من الهلاك .

وإذا تيسر الصبر على الأذى .. فإن الأمر يختلف إذا تعرضت حياته ﷺ للخطر .

وإذن فقد كانت الهجرة قدراً مقدوراً .. حقق الله تعالى به مجموعة من الفوائد الفردية والاجتماعية .. أشار إليها صاحب المنار بقوله :

شرعت الهجرة لثلاثة أسباب :

اثنان منها يتعلقان بالأفراد والثالث يتعلق الجماعة :

أما الأول : فهو أنه لايجوز للمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها ذليلاً . مضطهداً فى حريته الدينية أو الشخصية .

فكل مسلم يكون فى مكان يفتن فيه عن دينه . أو يكون ممنوعاً من إقامته كما يعتقد .. يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حراً فى تصرفاته . وإقامة دينه ، وإلا كانت إقامته معصية . يترتب عليها مالا يحصى من المعاصى .. وإلا جاز له الإقامة .

وأما الثانى : فهو تلقى الدين . والتفقه فيه : فلايجوز لمن أسلم فى مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين أن يقيم فيه . بل يجب أن يهاجر إلى حيث يتلقى الدين والعلم .

وأما الثالث : المتعلق بجماعة المسلمين : فهو أنه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام . وتقيم أحكامه وحدوده . وتحفظ بيضته وتحمى دعاته وأهله . من بغى الباغين . وعدوان العادين . وظلم الظالمين .

فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة ضعيفة يخشى عليها من إغارة الأعداء . وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها .. حتى تقوى . وتقوم بما يجب عليها .

فإذا توقف ذلك على هجرة البعيد إليها .. وجب عليه ذلك وجوباً قطعياً. لاهوادة فيه .

وإلا كان رضياً بضعفها .. معيناً لأعداء الإسلام على إبطال دعوته . وخفض كلمته [1] .

من أسرار نجاح الهجرة :

١- كان القدر الأعلى يدبر لنجاح الهجرة .. ومن صور هذا التدبير الإلهى ما كان من حرب بعاث التى دارت بين الأوس والخزرج . لقد أنهكتهم الحروب الطويلة . واستنفذت طاقاتهم .. وتطلعت نفوسهم إلى الخلاص.. فلما جاءهم من ربهم الهدى . على يد محمد ﷺ .. استجابوا له طائعين .. بقلوب هى فى الواقع أهل للانتفاع بهذا النور الجديد . بما فطرها الله تعالى عليه من

(١) تفسير سورة النساء : بتصرف .

سجايا قل أن تجتمع فى قوم آخرين .

وتأمل حكمته ﷺ عندما نزل فى « بنى عمرو بن عوف » من الأوس .. كيف سأل عن « أسعد بن زرارة » من الخزرج وكأنه بذلك يستشعر العداء القديم بين الفريقين .. وماقد يسببه إيثار الأوس بفضل نزوله فى ديارهم .. فجاء سؤاله عن أسعد بن زرارة حفظاً للتوازن .. ومبادرة طيبة يؤكد بها الوحدة الى بدأت اليوم تعلن عن نفسها . ممايفرض علي الداعية اليوم أن يظل دائماً فى القلوب .. بهذه المجاملات التى لاتتم على حساب العقيدة .. وإنما هى تثبيت لها .

٢- الكتمان :

لم تكن الهجرة « خروجاً » .. وإنما كانت « تخريجاً » ينال به المهاجر «شهادة» تبدأ بعدها الحركة العملية .

ولقد كان أول درس فيها هو : كتمان السر .. كتمانه حتى على عائشة رضى الله عنها .. ذلك بأن كشف السر يعنى قتل المهاجر .. وذلك يعنى قتل الدعوة ذاتها .

وعلى هذا الأساس كان توزيع الأدوار على النحو التالى :

أ- أبو بكر رضى الله عنه يحمى الرسول ﷺ . يسير أمامه أحياناً .. وأحياناً يسير خلفه .. أو بجانبه .

ب- عامر بن فهيرة يعمى على آثار الطريق .

جـ- عبد الله بن أبى بكر يقوم بمهمة الاستطلاع .. فيجالس قريشاً يتسمع أخبارها .. ثم يذهب إلى الرسول ﷺ وصاحبه .

د- أسماء رضى الله عنها تنقل إليهما الطعام .

هـ- وعلى رضى الله عنه ينام مكانه .. ويغطى ببرد الرسول .. تمويها .

من دروس الهجرة :

أ- المؤاخاة :

وهى القاعدة الصلبة التى انطلقت منها الجيوش الإسلامية من بعد .. فدوخ الله تعالى بها الطغاة .

ولم تكن هذه المؤاخاة لوناً من الزمالة التقليدية ولم تكن تلك العلاقة الرابطة بين أفراد فريق لكرة القدم .. ينفق النادى علي أحدهم ملايين الدولارات .. من أجل كرة من الجلد تستقر فى شبكة من الحبال !

وإنما هى المؤاخاة التى تذوب بها الفوارق حتى يقول أحدهم للآخر : يا.. أنا!! .

أرأيت إليه ﷺ كيف آخى بين حمزة ، وهو من سادات قريش .. وبين زيد بن حارثة .. المولى .. خادم رسول الله ﷺ .

وهو بهذا يلغى الطبقية .. كراهة أن تكون سلالة أرفع من سلالة

توخيا لمجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .. تقوم فيه أخوة الدين مقام أخوة النسب .

كانت أخوة سلمان له رحم ولم تكن بين نوح وابنه نسب .

وتأمل كيف كان زيد بن حارثة .. مولى الأمس .. هو الصحابى الوحيد الذى صرح القرآن الكريم باسمه .. فى آيات .. تتلى .. وإلى الأبد !

لقد تحققت بهذه الأخوة سليقة الانسجام بين أفراد الأمة . وبهذا الانسجام كان الالتحام .. ثم اقتحام المخاطر خارج حدود دولة الإسلام الذى سعدت به الأمم جميعاً .

ب- الاستعانة بالكافر :

استعان ﷺ بعبد الله بن أريقط .. وهو كافر . ولعله بهذا الاختيار يحسم مايثار من جدل حول هذه الاستعانة المحكومة بروح الإسلام .

يقول ابن القيم : (فى استئجار النبى ﷺ عبد الله بن أريقط الدؤلى هاديا فى وقت الهجرة وهو كافر .. دليل على جواز الرجوع إلى الكافر فى الطب ، والكحل ، والأدوية ، والكتابة ، والحساب ، والعلوم ونحوها مالم يكن ولاية تتضمن عدالة .

ولايلزم من مجرد كونه كافراً ألا يوثق به فى شئ أصلاً . فإنه لاشئ أخطر من الدلالة فى الطريق . ولاسيما فى مثل طريق الهجرة) [1] .

(١) حرب الخليج . د. الفرماوى / ٨٧ / ٨٨ .

ونقول هنا : إن قضية عدوان المسلم على أخيه المسلم فى حرب الخليج كان ينبغي أن تبرز أولاً .. ثم توضع على بساط البحث .. فإذا حسمت .. انتقلنا منها إلى قضية الاستعانة بالكافر .. ولكن الأمر كان بالعكس .. ومن ذلك ماقيل :

لم يثبت أن النبى ﷺ استعان أبداً بكافر فى أية غزوة من غزواته .

وإن اتخاذ النبى ﷺ فى هجرته دليلاً علي الطريق من المشركين .. وهو عبد الله ابن أريقط . يدخل فى أحكام الإجارة .. والإجارة غير الجهاد.. كما أنها تكون للنفع لاللإفساد [1] .

وهذا الرأى محجوج بما تقدم عن ابن القيم .

جـ- احتواء أعداء الدعوة :

إذا كان الإسلام فجراً أطل على الوجود كله .. فسعد به الخلق جميعاً.. فقد كان المتوقع أن يتلقاه الناس بالقبول .

أو على الأقل .. إذا لم يهتدوا به إلى أن يتركوه ليهتدى الآخرون .. ولكن قريشاً تنكبت طريق الحق .. وواجهت الجميل بإنكاره .. بل بمحاولة إطفاء نوره .

ولقد رصدت الجوائز الكبرى لمن يعثر على محمد ﷺ حياً أو ميتاً ..

---

(١) حرب الخليج . د. الفرماوى / ٨٧ / ٨٨ .

وكان سراقة .. هذه البندقية المعروضة للإيجار ! فخرج يطلب الرسول طمعاً فى الجائزة .

موقف الداعية :

وصل سراقة فعلاً إلى حيث رأى الرسول ﷺ .. وكان موقفه عليه الصلاة والسلام درساً لأمة الإسلام فى كيفية التعامل مع أعدائه إذا لم تكن على مستوى الأعداء عدة وعددا .

فماذا فعل ﷺ وقد رأى الخطر محدقاً به .

أولاً : استعان بالله تعالى .. فدعا على سراقة . فساخت قوائم فرسه فى الأرض .

ثانياً : فلما استنجد بالرسول أنجده .. وكان من المصلحة الظاهرة أن يظل مقيداً مع فرسه فى مكانه .. ولكنه ﷺ .. عامله بما يليق به كرسول.

ثالثاً : وعده بسوارى كسرى يلبسهما بعد حين من الدهر .. ومعنى ذلك . لجوء الداعية إلى الله تعالى لحظة الخطر .. ثم .. وفى نفس اللحظة تبدأ المبادرة البشرية بحسن التعامل مع العدو بالعفو .. ثم .. بمقابلته بالخير إن وجد .. أو على الأقل أن يعده به إذا لم يوجد .

الحكمة تؤتى أكلها :

حققت الحكمة النبوية نجاحاً كبيراً :

فقد أثر جميل الرسول في نفسه على الفور .. لقد قطع على نفسه عهداً أن ينصرف . ثم يخذل من يراه من أعدائه أو من طلاب الجائزة !

وكان من الممكن بعد عودته أن يخبر قريشاً بمكانه .. ولكنه وفى بعهده بل وأعلن إسلامه وكان جزاؤه أن عاش ولبس سوارى كسرى فعلاً .. وتحقق ماكان مستحيلاً ولقد قال عندئذ أو قال عمر :

الحمد لله الذى سلب كسرى وألبسهما سراقة .. وظل سراقة وفياً بعهده .. وظل شاهداً على ماتثمره الحكمة من خير وإن طال به المدى .

لما فرغ ﷺ من غزوة حنين ... أراد أن يوجه خالداً على رأس سرية إلى « بنى مدلج » قوم سراقة .. فأتى سراقة رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة.. وأعلن إسلامه . ثم قال : يارسول الله .. أحب أن توادع قومى.. فإن أسلم قومك أسلموا . وإلا أمنت منهم . فأخذ رسول الله بيد خالد وقال : «اذهب معه .. فافعل مايريد » .

فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ . وإن أسلمت قريش أسلموا معهم .

وهكذا تتأكد القاعدة القائلة : قد ينال الإنسان باللين أضعاف ماينال بالشدة.

د- العدل .. أساس الملك .

لما بركت ناقته ﷺ في مكان يملكه غلامان من الأنصار .. في حى بني النجار أبدى الغلامان رغبتهما في أن تكون أرضهما هبة .. وأبى عليه الصلاة والسلام إلا أن تكون بالثمن .. فاشتراها بعشرة دنانير .. مؤكداً بهذه المبادرة الكريمة ضرورة أن تشاد الدولة على ضمانة الاستقرار والاستمرار وهى : قاعدة العدل .. الذى هو أساس الملك .

وإذا تنافس المتنافسون فى التضحية بأعز مايملك الإنسان .. وإذا تم ذلك هنا على مستوى الطفولة التى تتشبث عادة بما تملك وإذا استجابت الدولة لهذا التنافس الشريف بالإنصاف .. إذا تم هذا وقام الشعب . والدولة معاً .. بما يجب عليهما .. فهى الشهادة بأن أمة هذا شأنها جديرة بالبقاء .

التأريخ بالهجرة :

بعث أبو موسى الأشعرى إلى عمر رضى الله عنه يطلب منه تحديد مبدأ للتاريخ يكون قاعدة ينطلقون منها فى تحديد الأيام .

فجمع الخليفة كبار الصحابة .. وقلبوا الرأى .. وتقرر ألا يكون التاريخ بمولده ﷺ .. ولابوفاته .. ولاحتى بيوم بعثته .

لقد قرروا ربط التاريخ بالعمل .. لابشخص مهما كان موقعه .. ولقد كان حادث الهجرة أنبل الأحداث : فى دوافعه .. وفى غايته .. ثم في الطريقة التى تم بها .. ثم فى الآثار العظيمة التى ترتبت عليه .. فكان خليقاً أن يكون مبدأ التاريخ الإسلامى . إثارة للمهمة الإسلامية .. لتكون على

مستوى عقيدتها عملاً وتضحية .. وأن تحقق فى يومها معنى الهجرة .

فلتكن أمتنا « أنصاراً » لكثير من المهاجرين .. على مستوى العالم اليوم .

إن الكرة الأرضية تزدحم اليوم .. بمهاجرين .. ولكن بلاأنصار ؟!!

فأين الإسلام الجامع المانع ؟ أين قيم الهجرة التى وضع الله تعالى بها حدا لآلام المسلمين .. والذين صاروا بها مع إخوانهم للحق سنداً وجنداً؟

ولايفوتنا هنا أن نقول : إننا لما انتصرنا فى رمضان .. كان من المتوقع أن نظل ذاكرين لنعمة الله الذى نصرنا بعد خذلان .. وفى رمضان .. بالذات . لكن الإحساس بالنعمة غاب .. فاحتفلنا بذكراه .. فى أكتوبر .. وكان الظن أن يكون فقط فى رمضان .. تذكيراً بنعمة الله الذى نصر عباده المؤمنين الصائمين .

ولكن لابأس .. فلقد كان ذلك تدبيراً إلهياً لايخلو من سخرية لعلها أن توقظ فينا من كان غافلاً .. فقد آل الآمر من حيث لانحتسب إلى أن نحتفل بالمناسبة المباركة مرتين لامرة واحدة .. مرة فى أكتوبر .. ومرة فى رمضان!!.

محاولة فاشلة
لإحباط الهجرة

عندما انطلق المسلمون مهاجرين .. وصارت الهجرة حقيقة واقعة .. أغاظ ذلك قريشاً فصممت على إحباطها أو إجهاضها قبل أن تتم فصولاً .. وقد حدث أن صحب « عياش » « عمر » رضى الله عنه فى الطريق إلى المدينة . ولما كان « عياش » أخ أبى جهل لأمه .. فقد قررت قريش أن ترسل إليه أبا جهل وهو مايزال فى الطريق مع عمر .. وقد نجح فى خداعه .. وعاد به مقيداً إلى مكة .. بعدما أوهمه أن أمه توشك أن تموت شوقاً إليه وحزناً عليه وقد أغراه عمر رضى الله عنه بالمال ليبقى معه .. فراراً من أبى جهل .. فلما رأى منه الحنين إلى أمه .. أعطاه ناقة نجيبة وقال به : « إن رأيت منهم ريبة .. فعد بها .. وانج » لكنه لم يستطع أن يعود .

كيف تصدى الشباب للخطة الماكرة :

عاد عياش رضى الله عنه بعد أن انطلت عليه حيلة أخيه أبى جهل .

وعلى بعد الشقة بين رفاق الإيمان .. إلا أن عمر وصحبه بالمدينة لايزالون يذكرون عياشاً .. ورفاقه ممن اعتقلتهم قريش .. فكان يرسل إليهم بين الحين والآخر آيات من القرآن الكريم .. لعلها أن تمهد لهم سبيل الهجرة إلى المدينة .

ومع هذا .. فقد كانت دماء عمر تفور فى عروقه مع بقية المهاجرين

أحياناً فيشتد نقدهم لعياش ورفاقه ثم يقولون ثائرين :

قوم عرفوا الإسلام . ثم ارتدوا لن يقبل الله منهم صرفاً ولاعدلاً . فلما قدمﷺ المدينة نزل قوله تعالى :

﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا علي أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ .

ويرسل عمر الآية إلى هشام بن العاص . والذى رجع إلى مكة كأخيه عياش هكذا يرسلها .. لتكون فرصة ذهبية .. تفتح بصيرة الإخوة ليفروا إلى إخوانهم هناك فى المدنية .. هكذا يتعامل رفاق السلاح .

إن رفاق المعركة من المسلمين لا يحقدون . . وإنما دينهم الحب وقد تختلف الآراء يوما . . ولكنهم يتراجعون . . ليكون الحق غالبا . . وفى المقدمة .

وإذا كانوا قد قد ذاقوا معا مغارم الكفاح ضد الطغاة ثلاثة عشر عاما . . فلا يجمل بهم أن يضيعوا ثمرة النصر وهى منهم اليوم قاب قوسين أو أدنى .

وإلا . . فإن صراع الإخوة على القمة . . . سوف يذهب بهم . . حين يخربون بيوتهم بأيديهم . . وتبلغ المأساة قمتها عندما يهجم أعداء الدعوه ليتحكموا فى أقدار الحياة من جديد !!

وها نحن أولاء نرى الاختلاف فى وجهة النظر يشتد . . ولكن عمر

ورفاقه بالمدينة يرسلوا بالآيات إلى مكة .

وكان هشام وكان عياش يقلب كلاهما بصيرته فى هذه الآيات فلا يفهم مغزاها .. ثم يدعوا الله تعالى أن يفقهه .. ليدرك معناها .. وأخيراً يفهم هشام أن الآيات تقصده .. هو ورفاقه .. فيركب ناقته ويعود إلى المدينة.

قصة العودة وتضحيات الشباب :

روى كتاب السير : أن الرسول ﷺ قال :

« من لى بعياش بن أبى ربيعة . وهشام بن العاص ؟ »

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يارسول الله بهما .

فقدم مكة مستخفياً .. فلقى امرأة تحمل طعاماً . فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين .. تعنى : هشاماً .. وعياشاً . فتتبعها حتى عرف موضعهما . وكانا محبوسين فى بيت لاسقف له .

الشباب والتدريب على فنون القتال :

لم يحاول الوليد أن يقتحم السجن فى حركة انتحارية تحبط سعيه ، ولكنه تريث حتى جن الليل .

ثم أخذ « مروة » – وهى حجر أبيض – ثم وضعها تحت القيد فى أيديهما . ثم ضرب المروة بسيفه . فقطعها فانفك القيد .. فكان يقال لسيفه. « ذو مرة »

ثم حملهماعلى بعيره عائداً بهما إلى رسول الله ﷺ .

وهكذا أنجز الشاب مهمته الصعبة . معرضاً حياته للخطر .. مهمة .. لم يكن فيها .. ساعى بريد .. وإنما شحذ فكره .. وأعمل حيلته .. حتى حطم القيد .. جاعلاً ذلك كله فى هدأة الليل .. ولم تكن قصارى خدمته للدعوة نشيداً منغوماً لايكلفه إلا عقيراً يجأر بها .. أو لعنات يصبها على إخوانه المارقين .. الذين عادوا إلى مكة مستسلمين .

ولكنه بدل أن يلغن الظلام .. أضاء شمعة .. فقدم من نفسه أسوة حسنة للداعية الذى لاتنتهى مهمته عند تحديد هدفه .. بل عليه .. أن يتحرك فى اتجاهه .. بدل أن يقعد مع الخوالف مهدداً متوعداً .

إن العصفور .. المتحرك .. خير من الأسد الرابض !

الهجرة .. والفجر الصادق

تمهيد :

هكذا علمتنا الحياة .. عندما يصل الإنسان إلى سن الشيخوخة .. ثم يظن أن آماله قد تحققت .. فإن حياته تكون حينئذ قد انتهت .. إذ سوف يقتله الملل من حياة : يومها .. كأمسها .. كغدها ... وهذا هو الإسكندر الأكبر .. الذى طوف فى الأرض ماطوف .. وكان فى يوم ما .. ملء سمع الزمان وبصره ... لقد أماته الملل فى أخريات أيامه .. وعندما كف قلبه عن الطموح .. الذى يشعل الروح .

ألا إن السعادة هى سعادة العاملين .. الذين يستولى عليهم ذلك الشعور العميق .. عندما تتزاحم الوجبات عليهم .. بحيث لايجدون فراغاً يشعرون فيه بالملال .. ثم بالتعاسة !.

وعندما يملأ الكسل حياة الفارغين .. فيثقلها بهموم أكثر .. فإننا نجد العاملين .. فى غمرة الكفاح يشعرون بثقل أقل مما يشعر الكسالى العاجزون .

ذلك بأن مرارة الكفاح تعطى العامل مزيداً من الأمل .. يسلمه إلى مزيد من العمل ... وهكذا يصير الأمل طاقة دافعة .. ينطلق الإنسان به .. فإذا هو مستبشر مقبل على الحياة . على مايقول الشاعر :

أعلل النفس بالآمال أطلبها .·. ماأضيق العمر لولا فسحة الأمل

المسلم .. والأمل المتجدد :

وإذا كان الأمل طاقة دافعة عند إنسان لايدين بعقيدة صحيحة .. متى تجاوب مع الكون حوله .. والذى لايكف عن الدوران .. فإن من شأن العقيدة الإسلامية أن تزود المسلم بأمل هو أطول امتداد .. وأعمق عمقاً لاتطفئه الأحداث ولكنها تزكيه وتنميه :

أما امتداده : فإن من دعاء المؤمنين فى الآخرة : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التحريم «٨» .

فمع أن زمن التكليف قد انتهى .. إلا أن التطلع إلى مزيد من النعيم مازال قائما .. وهو كما قيل سر من أسرار المتعة فى دار هى الحيوان .

أما أنه عميق : فلأنه يأخذ من معين القرآن مايرسخ الأمل فى قلبه فالحق تعالى يقول : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الطلاق «٧» .

ثم هما يسران مع عسر واحد .. ولن يغلب عسر يسرين وذلك قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسراً** ۝ **إن مع العسر يسرا** ﴾ الشرح «٥ . ٦».

وفوق ذلك كله : ففى قلب المسلم عقيدة تناقض اليأس وترفض لصاحبها أن يكون يائساً : ﴿ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يوسف«٨٧» . وهكذا .. وفى ضوء القرآن الكريم يواجه المسلم الحياة بالعزم الشديد والرأى السديد .

وبينما اليائس هناك : يضيق صدره .. فينفد صبره .. ينزل هو في

بحر الحياة يغالب الموج أولاً .. وقد تتقطع منه أنفاس .. وتبلغ القلوب الحناجر .. وإذا بأقداره تضعه بين أمرين :

أمر يحبه .. وهذا الفرار من الخطر وأمر يثقل عليه وهو احتواء هذا الخطر .

ولن يتردد فى اختيار الحل الثانى . فى صحبة نفس تؤمله فى النصر القريب حين تذكره بأن غيره من السباحين كانوا مثلك .. لكنهم عبروا البحر الكبير .. بالأمل الكبير ! .

بين الهجرة ورخاء العيش :

قيل لأعرابى : أتشتاق إلى وطنك ؟ فقال : كيف لاأشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها وكانت ربيع غنمها .

ومع ذلك فلما فرض عليه السفر .. والترحال .. خاض التجربة راضياً.

فالسفر أحد أسباب المعاش الذى بها نظامه ، وقوامه .. لأن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى أرض ، بل فرقها ، وأحوج بعضها إلى بعض .

ومن فضل السفر : أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار وبدائع الأقطار . ومحاسن الآثار ، مايزيده علماً ، ويفيده فهماً ، بقدرة الله وحكمته، ويدعوه إلى » شكر نعمته . قال حاتم الطائى :

إذا لزم الناس البيوت رأيتهم عماة عن الأخبار ، وضاعت المكاسب .

بلغت المحنة ذورتها قبيل الهجرة .. وفى نفس اللحظة بلغ الأمل فى النصر منتهاه ! .

لقد كان المتوقع – بحسب الظاهر – أن يتخاذل المسلمون بعد أن أطل الخطر من كل جانب .

ولكن المسلمين عبروا حينئذ عن حيوية العقيدة بالأمل الوطيد فى نصر الله والفتح .

وفى اللحظة التى توقع فيها الكافرون انهيار المقاومة الإسلامية .. كان المسلمون على أوفى مايكونون استعدادا ليوم النصر المأمول الذى بدت بشائره .

بشائر النصر :

فى طريقة ﷺ ومعه الصديق .. إلى المدينة وفى اللحظة التى لايبدو فيها خيط أمل فى النجاة .

وفى هذه اللحظة بالذات تجيئه البشارة المؤكدة .. لابوصوله إلى المدينة سالماً فقط .. بل كانت البشارة باستقرار فى المدينة وبلوغ الأمة أشدها .. لتعود تحت رايته منتصرة .. وذلك ماأكدته الآية الكريمة التى نزلت عليه ﷺ فى طريقه إلى المدينة : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ القصص «٨٥» .

وهو وعد مؤكد باللام ﴿ **لـــرادك** ﴾ . ثم هو سبحانه لايقول له : سيردك.. وإنما رادك فكأنما العودة حاصلة فعلاً .. ومن الآن .

ثم هى عودة محكومة بسنة إلهية ماضية فى الناس .. وهو ماتشير إليه الآية السابقة : ﴿ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ القصص « ٨٤ »

فقد جئت بالحسنة جهاداً .. وإعداداً .. فكانت العودة المباركة نتيجة حتمية بإذن الله .

بينما بذلل الكافرون فطرهم عناداً .. وفساداً .. فحصدوا من جنس ماعملوا!.

كان ﷺ عند حسن الظن به واثقاً بنصر ربه سبحانه . وبخاصة فى اللحظة التى صار عندها فى مرمى نيران العدو :(لو نظر أحدهم عند قدميه لرآنا)

وعندما قالها الصديق رضى الله عنه .. كان الجواب حاضراً فى قلب الرسول وعلى لسانه : « مابالك باثنين الله ثالثهما .. لاتحزن إن الله معنا ».

وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف الخالد فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة « ٤٠ » .

فـانظروا كـيف بلـغ اليـقـين فى اللـه مـداه .. فى الوقت الذى بلـغ فـيـه طغيان الأعداء مداه ... وعندئذ تحسم القضية لحساب الحق .

فإذا باشر القائد كل الأسباب المتاحة . ولم يدخر فى استعمالها وسعاً .. ثم لم يحن وقت الخلاص .. وإذا أدت الأمة ماعليها .. ثم طوقتها الأحداث ولات حين مناص .

عندئذ تعلن الأسباب الأرضية فشلها .

وهى لحظة الخـلاص حين تتكفل الأسـبـاب الإلهـيـة بإدارة المعـركـة لحسـاب الحق حتـماً .. ثم يكون النصر المبين .. وهو مـانوهت به هذه الآية الكريمة التى تحـدثت عن السكينة النـازلة .. والجنود المؤيدة .. وكلمـة الحق الغالبة .. تحدثت عن ذلك .. لا على أنه سوف ينزل .. وسوف يتحقق غداً أو بعد غد .. ولكنه حدث فـعلاً .. وصـار حقـيقة واقـعة فى نفس اللحظة التى تقطعت فيها الأسباب البشرية .. ولاعجب فالله عزيز حكيم .

من الإخلاص .. إلى الخلاص :

وهكذا تنطلق الأمة فى شخص زعيمها من قاعدة الإخلاص .. الذى ينتهى بها إلى الخلاص .

الإخلاص : الذى هو أقوى حجر فى بناء الأمة .. وتأمل كيف تتوهج حقيقة الإخلاص .. والتسليم والتوكل فى معمعان الخطر المحدق .. والظلام المطبق .. ثم لايمنع ذلك من رؤية الحق واضحاً جلياً .

بينما المبطلون الذين يملكون من الأسلحة .. ووسائل المدنية مايملكون .. ثم لايبصرون .. ذلك بأن من كان يطلب الباطل .. لم يتمكن من رؤية الحق .. ولو كان أشهر من الشمس فى رائعة النهار .

الجنود .. على نفس الخط :

يقول الحكماء : إذا أردت . فلم تقدر .. فأنت معذور .. وإذا قدرت فلم ترد .. فسوف يأتى يوم تريد فيه ثم لاتقدر !.

وقد قدر محمد ﷺ - والذين آمنوا معه - قدر على أن يخوض بالدعوة هذه المخاضة المحفوفة بالخطر الداهم . ثم صمم على أن يدفع الثمن .. ولو كان نفسه التى بين جنبيه .. ومن ورائه جنوده المخلصون .. الذين كانوا معه على أوفى مايكونون إخلاصاً .. ووفاء .. ورجاء فى نصر الله والفتح .

وبدت من خلال التجربة الصعبة خصائص الداعية المجاهد : فقد يكون التقدم نحو الهدف بطيئاً .

وقد تكون التضحيات فوق ماتظن لكنه .. لايقف أمام الأحداث جامداً .. وإن كان السير بطيئاً .

إن بلوغ المراد ليس مستحيلاً .. ولكنه يتطلب مجاهداً على مستواه .

لايذرف الدموع على نصر تأخر .. ولكنه يواجه الخطر بعزيمة هى أخطر منه .. منطلقاً من سنة اجتماعية تقول : إذا ضحكت .. ضحكت معك

الدنيا .. وإذا بكيت .. بكيت وحدك ! .

وهكذا البطل المسلم دائماً .. تبدأ حياته بالأشواك .. لكنه يسخر فى مواجهتها أمرين :

١- كل طاقاته .. فلايدخر وسعا ولا يألو جهداً .

٢- وكل أمله فى النصر .. فيمضى به عبر المستقبل .. ذلك بأن البطل المسلم لايترك جواده الأصيل فى « الإصطبل » يقتله الملل .. لأنه يخاف عليه من العثرات .. لكنه يتخذ من ظهره ركوباً .. إلى الغاية الكبرى .. فينظر أمامه .. ثم لايشغل نفسه بالشرر المتطاير من تحت السنابك .

عمر يستشعر الفجر الصادق :

ولقد كان خروج عمر رضى الله عنه من مكة آية بينة شاهدة بقدرة المؤمن على مواجهة الأحداث .. بمصابرتها .. بل ومكابرتها .. بما منحه الإيمان من ثقة بربه سبحانه .... والأمل فى نصره .. رغم قسوة الظروف .. ومايترتب على ذلك من الوصول إلى المأمول .

تهيأ عمر للهجرة .. فتقلد سيفه . وتنكب قوسه . وانتضى بيده أسهما .. ثم ذهب إلى المسجد . فاستقبل قريشاً بسلاحه : فطاف بالبيت سبعاً . ثم أتى المقام فصلى .

ثم وقف على الملأ من قريش ... فأعلن وحده الحرب عليهم جميعاً فقال : « شاهت الوجوه .. لايرغم الله إلا هذه المعاطس .. من أراد أن يثكل أمه .

أو يوتم ولده . أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » .

قال على رضى الله عنه : فما تبعه إلا قوم من المستضعفين .

وهكذا يبدو المؤمن واثقاً بالفوز .. فهزم بيقينه جحافل الشرك ..

حسب الزواحف فى الصحائف شكة   من سنه لتغيب طى رماد

ذلك بأن عمر يقول الحق .. ثم هو يعتقد أنه على الحق .... أما المشركون ، فليس لديهم ذلك اليقين وهذا الحماس .. فتواروا خائفين .

لقد تربى عمر فى الصحراء التى لايعيش فيها الجبان ولا المتخاذل .

فحياتها - كما قيل - : (حياة قاسية تتطلب الصبار .. الحمول .. المقدام)

لايعيش فيها مريض .. لأنها ميدان الأبطال الأصحاء .. ولايعمر فيها المنافق .. لأنها مكشوفة .. مافيها سقوف ولاجدران) .

وإذا كانت قريش - كعمر - نشأت على بسيط هذه الصحراء .. فقد فاقهم بالإيمان الذى لايتوهج إلا لحظة الخطر اتكالاً على الله سبحانه وتعالى .

هذا الإيمان الذى صلبت به إرادته .. واشتد أسره فصار عصيا على الهزيمة .

وإذا كانت الحربة تدخل فى جسم الخامل الكسول الغافل إلى العمق .

فـإن هذه الحـربة حين تصـوب إلى المؤمن اليـقظ المشـدود الجـسم والأعصاب لاتتجاوز بشرته لأنه بيقظته يمنعها من النفاذ .

وهكذا يعلم المؤمن الحياة ... أن خسارة العاجزين اليائسين أكبر من خسارة الأبطال الأيقاظ .. المهاجمين .

ولماذا يتـراخى المسلم وهو ملك هذا الكون لقـد جـعل الله لى الأرض فراشاً .. والسماء بناء .. فهو يملك الأرض .. والفضاء معا .. من أجل ذلك فهـو يستـمد من هذا الحق قوته فى مـواجـهة الذين يحرمـونه حقـه .. فكل ماأظل أرضك من شئ فاقطعه .

من العبرة .. إلى الاعتبار :

وإذ يواجـه المسلمـون اليـوم من أعـدائهم نفس الموقف .. وإذ تدلهم الخطوب .. وتبلغ القلوب الحناجر .. فإن على أمتنا أن تأخذ من الهجرة ذلك الدرس المفيد :

أحياناً تكون أحوج إلى تغيير النفس من تغيير العالم كله .

وقد ظهرت العبرة جلية .. ولم يبق إلا الاعتبار .. فلنتجه إلى النفس نغيرها .. ليغير الله تعالى مابنا .. فمن النفس تبدأ الخطوة الأولى فى اتجاه الإصلاح .

إن المؤمن طمـوح بحكم الإيمان . ومن ثم فـهـو لايرضى بالقليل إذا ماأتيح له الكثير مما هو حق له مشروع .

وقد يلاقى فى طريقه عقبات .. بل لابد أن يلاقى فذلك قدره المحتوم .. وإذن .. فلينح اليأس جانباً .. وليقنع نفسه بهذا القرار الصعب .

ليست الطرق كلها ممهودة .. فليحاول أن يشق له فى الصخور طريقاً.. لاتيأس أيها العطشان .

إن الينبوع موجود .. وبين جنبيك .. عد إلى نفسك .

واحتفر بئرك بيدك .. سوف تسمع شقشقة الماء .. آتية من أعماقك .

سوف يشع النور فى أعماق البئر .. وإذا بالنجوم تسطع فى أعماق البئر.

امض فى طريقك .. مع ركب الكرام .. إن التشبه بالكرام فلاح .

وحذار أن تتخلف عن الركب الميمون .. إيثارا لراحة مزعومة .

فمالزم أحد الدعة ... إلا ذلل .. وحب الهوينى يكسب الذل ... وحب الكفاية مفتاح العجز .. ألا وإن الراحة حيث يتعب الكرام .. أودع .. لكنها .. أوضع .. والقعود حيث قام الكرام .. أسهل .. لكنه أسفل .

درس .. من هناك :

يقولون : لاتعلن عن متاعبك . فليس هناك سوق لها .. أما أفراحك فانشرها على الناس .... إن بعض الناس يتخذون من الكأس المخدرة سلاحاً هزيلاً يواجهون به متاعبهم . وبعضهم تحملهم أجنحتهم فوق

الصخور التى تعترض طريقهم .

وإذ تقول ذلك ممثلة أجنبية مترفة .. فأحرى بأهل الإيمان أن يأخذوا هذه الحكمة التى هى ضالتهم وبضاعتهم .. ثم ليواجهوا الأحداث الهاجمة اليوم بمثل الأمل الصادق .. الذى بدا من خلال الهجرة على مستوى القمة والقاعدة معاً .

ولن تغنى الخطب والشعارات عن النصر شيئاً إن الريش الجميل .. ليس كافياً وحده لصنع طائر جميل .

لابد من هواء .. وطاقة تمكنه من الطيران .

وهكذا .. إذا أردنا أن ندافع عن حقوقنا .. وأن نحميها من عدوان غاصبيها : لابد أن نكون على مستواها :

إن البكاء على الأطلال – كما يقول العارفون – لايحيى موتاً ... إنما هو عجز عن مواجهة الواقع الصارم .. بإرادة التغيير .

وهو موقف اليائس من تحقيق الأمل .. حين يلجأ إلى الدموع الغزار عوضاً عما ينبغى أن يكون .

إن وسائل الحصول على حقنا لابد أن تكون على مستوى هذا الحق :

ندافع .. وبإخلاص .. وندعو إليه .. ودائما .. ومن وراء ذلك إرادة نشحذها بالعمل .. وبالأمل لتكون قادرة على التنفيذ .

ألا ماأحوج أمتنا إلى رصيد من الأمل ... ومزيد من العمل .

رصيد من الأمل .. حتى لاينتهزها الأعداء فيمتدون فى فراغنا الذى يصنعه اليأس المخرب .

ومزيد من العمل نرفض به التبعية .. لتظل أمتنا كما أراد لها ربنا سبحانه قائدة .. راشدة .. شاهدة على الناس .

الهجرة

بين الأمل .. والعمل

يقول الله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ الأنفال «٣٠» .

تمهيد :

يكشف الرجل عن طبيعته بنوع اختياره :

فإذا عرض عليه : هل تريد حملاً خفيفاً أم تريد ظهراً قوياً ؟

فإذا اختار الظهر القوى .. كنت أمام همة ترمى بصاحبها إلى بعيد.. إلى ماوراء النجوم .

وقد يتغامز من حوله التافهون .. ساخرين من رجل يختار المركب الصعب .. وكان فى إمكانه أن يسلك الطريق الممهود .

ويستخف الرأى الفطير الجماهير المخدوعة .. فإذا هم كما وصفهم ربهم :

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ المطففين «٢٩-٣٢» .

وإن تعجب فعجب أن يسخر المجرمون .. من المؤمنين .. والضالون من

المهتدين .. فيسخرون منهم .. سخر الله منهم .. ومن أبرز مواطن السخرية • من المجرمين .. الضالين .. حادث الهجرة عندما بلغ أملهم فى الإجهاز على الدعوة منتهاه ... وفى نفس اللحظة ضاع الأمل .. وحبط العمل :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين « ٣٤ »

من إعداد القائد

إلى إعداد الأمة

لقد كان الإسراء والمعراج نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الدعوة .. بما تحمله من أمل فى معية الله تعالى .

وإذا كان الإسراء أملاً .. صح به العزم .. واستعدت فيه الإرادة فقد كانت الهجرة نقلة محص الله بها المؤمنين .. فخرجوا منها : آملين .. عاملين.

يقول الشيخ عطية محمد سالم :

« كانت الهجرة النبوية نقطة تحول ، ومبدأ تاريخ جديد ، وانطلاقة أمة . فقد كان طريقها شائكاً ؟ تحت ظلال السيوف ، وفى وحشة الغار ، وتحت إرهاب الطلب . تحفها وعثاء السفر على الرواحل وسط الصحراء . بدلالة مشرك فى طريق غير مأهول . بينما فى العام السابق أو نحوه ، كانت هناك هجرة أخرى ، أطول مدى ، وأبعد كنها ، وأكثر استطلاعاً ، وكانت أسرع زمناً وأقل مؤونة .. بعيدة عن المخاوف ، مجانبة للأخطار . رحلة امتدت من مكة إلى أرض النبوات بيت المقدس . واتصلت إلى السماء رأى فيها من آيات ربه الكبرى . فجئ إليه بالبراق ، يضع رجله حيث ينتهى طرفه . وكان رفيقه ودليله جبريل عليه السلام . فبالأمس رحلة شخصية يأتيه فيها البراق . واليوم رحلة دعوة وتثبيت دين يرحل فيها على بعيره . وبالأمس دليله

جبريل ، واليوم عبد الله بن أريقط وهو على دين قومه .. !

بالأمس يخرج من بيته إلى بيت المقدس والرسل فى استقباله . واليوم يخرج من بيته إلى الغار ، والطلب من خلفه . بالأمس يوم الأنبياء فى قبلتهم، واليوم يصلى وحده فى الغار !

بالأمس رفيقه جبريل ، يبين له أحوال الملأ الأعلى ، ويشرح له مايشاهده فى السماء . واليوم يطمئن روع صاحبه : « لاتحزن إن الله معنا » فهل كانت الرحلة الأولى أعظم خطراً أو هو فى الثانية أقل شأناً ؟ حاشاً وكلا . ولكنه النمو فى الدعوة ، والكمال فى الداعى ، والتعليم السماوى ، وتكريم الله لنبيه ، وإهانته لعدوه . لقد كانت الأولى رحلة بمثابة دعوة لزيارة عالم السماء تكريماً لأهل الأرض فى شخصية خاتم النبيين ﷺ كما أنها بمثابة إطلاع على أسرار هذا الكون ، ونتائج تلك الأديان ، وعامل ربط بين بنى العلات من الأنبياء فى لقاء شخصى كأنه استطلاع عن الماضى بما كان من أممهم معهم كما قال له موسى عليه السلام : لقد بلوت الناس قبلك فلم يطيقوا أقل ما كلفت أنت به ارجع إلى ربك فسله التخفيف . واستطلاع للمستقبل بما رآه ﷺ من الجنة وأهلها والنار وأهلها وماسيؤول إليه كل فريق . فلهذا كانت تكريماً وتبجيلاً . فجاءه البراق ، ورافقه جبريل عليه السلام ، والتقى بالأنبياء ، واطلع على الملأ الأعلى » .

برلمان إبليس :

والآية الكريمة التى نحن بصدد فهمها : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين**

كفروا.. ﴾ مسبوقة مباشرة بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال «٢٩» .

فهذا وعد من الحق تعالى بنصر أوليائه .. نفسياً : برؤية الحقه حقاً .. والباطل باطلاً .. ثم يتكفير السيئات وغفران الذنوب .. من لدن صاحب الفضل العظيم سبحانه وتعالى .. والذى يعدهم بهذا الفضل للفوز فى كل المعارك .

ثم جاءت آية اليوم كمعرض من معارض الفضل العظيم من واهبه سبحانه . عندما أحبط مكر الماكرين .. خير الماكرين .

فكيف تم ذلك ؟

تقول كتب السيرة :

اجتمع الملأ من قريش فى دار الندوة لاتخاذ قرار حاسم بشأن محمد ﷺ .

وإذا هم بشيخ جليل لدى الباب . فسألوه من أنت : قال : شيخ من نجد . سمعت بما اتعدتم عليه . فحضرت لأسمع ماتقولون . وعسى ألا تعدموا منى رأيا ونصحاً .

وعلى مرأى ومسمع من الشيخ قال بعضهم بشأن محمد ﷺ :

احبسوه فى الحديد .. وأغلقوا عليه بابا . ثم تربصوا به ريب المنون كإخوة له من قبل .

وهنا قال الشيخ الضيف وهو إبليس الملعون : لا والله . ماهذا لكم برأى . وعلل رفضه بما يعلمه من شعبيته ﷺ التي سوف تعلن عن نفسها من خلال رجاله الذين سوف يحطمون القيود .. وينتزعونه منكم .. فانظروا غير هذا الرأى .

فقال آخرون : نخرجه من ديارنا .. فإذا خرج عنا فوالله مانبالى أين خرج .

فقال الشيخ النجدى : والله ماهذا لكم بالرأى .. ألم تروا حسن حديثه. وحلاوة منطقه . وغلبته على عقول الرجال بما يأتى به ؟ دبروا فيه أمراً غير هذا .

وتولى أبو جهل فرعون هذه الأمة كبر اقتراح قتله .. الذى راق إبليس .. فصفق للفكرة التى جاء من أجلها .. لكنه لم يفصح عنها حتى لاينكشف أمره . وفعلاً قرروا قتله .

ولكن الحق تعالى أعلمه بما دبر القوم .. فقرر الهجرة .. وأمر المسلمين بها .

وبينما « برلمان إبليس » مايزال مجتمعاً .. وفى الوقت الذى فشل فيه المجلس فى اتخاذ القرار مرتين .. فطال .. وطال .. كان محمد ﷺ قد خرج

من داره فعلاً .. وخيب الله مسعاهم .. وانتصر المكر الخير على المكر السيئ .

وعلى هذا الانتصار مزيد من سخرية لاذعة .. تمثلت فى حسبانهم علياً النائم على فراش حسبانهم أنه الرسول ﷺ [1] .

﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

(١) راجع سيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير والكامل لابن الأثير .

عصا الجبان
واتجاهات البرلمان

لابد من وقفة نكشف بها عن خبيئة القوم .. القوم الذين ظنوا أنهم فى أقوى قوتهم .. والحق فى أضعف ضعفه .. يمسكون بالمنشار .. والمسلم لعبة فى أيديهم .

ولقد كانوا واهمين .. إذ أنهم عندئذ كانوا من الضعف .. بل من الهوان فى القاع .

إنهم لم يقترحوا فكرة القتل أولاً .. فلم يكن للجبان أن تطيعه نفسه بمنازلة من يعتقد فى قرارة نفسه أنه أقوى منه .

وحتى لما طرحت فكرة القتل . لم يجرؤ فرعون هذه الأمة أن يتحمل كبرها وحده .. أو يسلط من شاء لينفذ الخطة .. وإنما كانت فكرة الجبان الذى يحاول أن يجمع أطراف شجاعته المهلهلة ليضرب ضربة واحدة لايقدر على غيرها .. يضرب بها فى ظلمة الليل فيكون فيها نجاته أو مماته .

لقد اقترح اشتراك القبائل كلها فى قتل رجل .. واحد .. فقط .. هو محمد ﷺ .. وهو إذن فى حس أبى جهل أكبر من هذه القبائل جميعاً .. فضلاً عن هؤلاء المجتمعين فى برلمان إبليس .. والذى اجتمعت فيه الإنس .. والجن .. ولم يتمكنوا من تنفيذ الخطة المدبرة .. لم يفعلوا .. ولن يفعلوا .

ولك أن تتصور المتآمرين خمسين .. مثلاً .. إذن .. فكل واحد منهم يعتقد أن محمداً أقوى منه .. فلم يكونوا عندئذ .. خمسين .. إزاء واحد .. بل كانت نفوسهم تقف جنداً لحساب الرسول .. فكان هو الخمسين وكانوا هم الأصفار ! .. الذين ادارك علمهم فى الآخرة .. واليوم تدارك منهم الإرادة .. فلا تقدر على أن تتخذ القرار .

ألم تر إلى مغزى هذه الاقتراحات كلها ؟ .

لم يكن فيها اقتراح واحد .. يتحمله مقاتل شريف يواجه مباشرة من يتخذه عدواً .. وإنما هى المناورة .. ومن بعيد .

إنه الجبان .. الذى يحارب – كما يقولون – بالعصا الطويلة : فنفسه الهالعة الجازعة تفرض عليه أن يكون من عدوه بعيداً .. لتنوب عنه عصاه فى مناوشته .. وهو فى مأمن منه حتى إذا كانت لحظة الهرب كانت هناك مسافة تمكنه من الفرار قبل أن تطوله يد عدوه .

ولكن الشجاع يقاتل .. بالعصا القصيرة .. بالسيف القصير .. حتى إذا واجه عدوه .. أطال سيفه بخطوة يتقدم بها نحوه .

أى أن الشجاع هو الذى ينوب عن سيفه فى منازلة عدوه .. الذى سوف يفر من أمام رجل حريص على الموت .. فتوهب له الحياة .. بينما الجبان يموت فى جلده قبل أن يموت فعلاً .

سقوط حكومة الظل :

لم تطل فرحة أبى جهل .. فقد اغتالت المفاجأة هذه الفرحة .. وطعن فى ليلة عرسه .

وأما ابليس .. فقد مكر .. ومكر الله تعالى ... والله خير الماكرين : مكر إبليس حين حبك الخطة تماماً .

فقد استعار وقار الشيوخ لعله بالوقار المزيف أن يحقق مأربه .. ثم رشح الاستعارة بسيماء رجل عربى .. من نجد .. فلعل الجنس أن يميل إلى جنسه .. فتنجح الخطة .. ومع أنه جاء يحمل فكرة القتل ابتداء .. إلا أنه لم يطرحها .. حتى لايثير الظنون .. كما أسلفنا .

وهكذا يختفى الإعلام المعادى .. خلف القناع المزيف .. ومن ورائه يحرك خيوط العرائس .. على خشبة المسرح .. وقد يحقق نجاحاً .. فى مجتمع من جنسه .. وعلى مذهبه .. أما محمد ﷺ .. والذين آمنوا معه .. فالأمر على ما قال سبحانه تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

أجل ... قد يتناجى المجرمون بالإثم والعدوان .. وقتل الرسول .. وقد يحققون يوماً .. نصراً وقتياً .. تتطاير فيه الرءوس .

ولكن تبقى من المؤمنين النفوس تحطم منهم العظام .. ويبقى الإيمان شاهداً على قدرة المؤمن وفى لحظة ضعفه أن يهزم عدوه وهو فى أوج انبهاره .

يامن رأى عمرا تكسوه بردته	والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقا	من بأسه وملوك الروم تخشاه

الموقف على الجبهة الإسلامية :

عندما قال الله تعالى ﴿ ويمكرون ﴾ لم يقل فيمكر الله .. بالفاء .. وإنما قال سبحانه ﴿ ويمكر الله ﴾ .. بالواو .

وهذا يعنى : أنهم ... وفى ذات اللحظة التى يمكرون فيها كانوا فى قبضة القوة الأعلى .. يمكرون حالة مكر الله تعالى بهم .

فهم واقعون تحت سلطانه .. وإذا بدا لهم أنهم يتصرفون بحرية .. فإنما هى حرية الصخرة التى يسوقها السيل أمامه من قمة الجبل : تظن أنها تقوده بينما هو الذى يدحرجها .

وهذا هو الذى حدث بالفعل ... فبينما الاجتماع مايزال منعقداً .. ومداد الاتفاقية لم يجف .. إذا بمحمد ﷺ يضربهم بحفنة من التراب تعميهم .. فيقضى على أوهام النجاح الكاذب قبل أن يلعب برءوس الواهمين.

ولئن سعد الظالمون يوماً برؤية المعذبين فى قبضتهم .. فإن المؤمنين سيسعدون اليوم ... وإلى الأبد .

حلاوة الانتصار بعد مرارة الاصطبار :

أجل كانت سعادة الرسول ﷺ بالنجاة – والمؤمنون معه – تحس ...

ولاتوصف .

وهلى بقى للظالم من حياته اليوم شئ يبكى عليه ؟

لقد كان بينه وبين المظلوم ثلاثة أيام :

أمس .. وقد مضى وغد .... ولم يأت بعد .... واليوم .... اليوم الذين أمنوا من الكفار يضحكون .

موكب النصر :

ونستمع إلي صوت الأدب الإسلامى يصف لنا موكب النصر :

أرى موكب محمد .

لاتمشى وراءه الجند .

ولاترفرف عليه الأعلام .

ولاتدق له الطبول .

ولايحف به القواد .

ولايلمع على رأسه التاج .

ولكن يضئ على جبينه نور القرآن .

وتحف به ملائكة الرحمن .

وتصفق له قلوب الناس .

وتنزل عليه من ربه الرحمات .

وتمشى وراءه القرون : تهتدى بهديه ... وتقتبس من نوره .

لقد طلع البدر من ثنيات الوداع ... لاعليكن . وحولكن يا ولائد المدينة... بل على الدنيا كلها فبدد عنها غياهب الجهل . وأزاح عنها ظلام الظلم . وأسب عليها ثوب الأمن والعدل والخير [1] .

أسباب النصر :

لم يأت ذلك النصر المبين من فراغ ... وإنما كان : بالأمل ... والعمل ... بالأمل الوثيق فى نصر الله والفتح ... ثم بالعمل الذى يجعل من هذا الأمل واقعاً ملموساً .

العمل الذى يفرض عليك تجاهل نداء غريزة حب الوطن فى كيانك .. ثم تختار وطن هذه العقيدة : فلا أنساب .. ولاألقاب .. وكل مافوق التراب تراب! .

الأمل فى نصر الله :

يقولون : إن ذرة واحدة من الفحم ... تجذب أربعاً من الأيدروجين وسوف تظل النسبة ثابتة لاتختل .. مهما كثر العدد .

---

(١) من مقال للشيخ على الطنطاوى .

وإذا وضعت عشرة من المعادن فى مكان ... ثم وضعت عليها الزئبق .. فسوف تجد الزئبق يعانق الذهب دائماً ! .

ونقــول نحن باسم الإيمان : إن هذا اليــقين بصــدق هذه الظواهر الكونية أعمق منه يقيناً قول الله تعالى : ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾

وأن سنة الله تعالى : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ فاطر «٤٣».

ثـــــم .. ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون** ﴾ **الأنفال «١٢٣»** .

وعلى أنقاض هؤلاء الماكرين سوف يسمق بناء الحق .. وترفرف أعلام الإسلام :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الصافات «١٧١-١٧٣» .

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **الروم «٤٧»** .

ومعنى ذلك : أن ثقة المؤمن بالنصر فى باب اليقين أعمق وأعرق من كل سنن الكون الظاهرة .

وفى ضوء هذا اليقين يظل ثابتاً .. مصطبراً .

يظل هو البطل الإنســان ... الذى ينحنى للنســيم .. ولكن لاتكســره

العاصفة ، يؤثر الصدق حيث يضره .. على الكذب حيث ينفعه فى ظل شعوره هذا العميق بسنة الله تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ .

القائد يثبت الأمل فى قلوب جنوده :

نام على رضى الله عنه فى فراش الرسول .. وهو يعلم أنه قد يدفع حياته ثمناً لهذا التكليف .

وعلى رضى الله عنه : بشر .. وشاب ... فهو إذن يحب الحياة ... ولقد أدرك الرسول ﷺ ذلك .. فبشره بأنهم لن يصلوا إليه بما يكره .

ثم بشر المؤمنين لحظة تكليفهم بالهجرة بأن الله تعالى جاعل لهم فرجاً .. ومخرجاً .

وعلى حداء الأمل .. سار الموكب الميمون .

ومع هذا ... وفوق هذا .. ينزل الوحى الأعلى يربط على قلبه ﷺ -والمؤمنون معه – ليظل نهر الأمل دافقاً بالعطاء .

وذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ الإسراء « ٨٠» .

« وهذه بشارة أخرى أن الله تعالى أذن لرسوله بالهجرة من تلقاء نفسه ... لابإخراج قومه وهو كاره فقال له :

قل فى دعائك : رب أدخلنى المدينة .. دار هجرتى « مدخل صدق »

بحيث لا أرى فيها مكروها . وأخرجنى من مكة يوم تخرجنى « مخرج صدق » غير ملتفت إليها بقلبى شوقاً وحنيناً إليها .

﴿ **واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ أى وسلنى أن أجعل لك من لدنى سلطاناً نصيراً لك علي من بغاك بسوء .. وكادك بمكر وخديعة .. وحاول منعك من إقامة دينك »[1] .

ولاحظ أن الحق تعالى هو الذى يخاطبه . وفى هذا من الإيناس .. وبسط النفس مافيه .. وأن الذى يخاطبه هو القاهر فوق عبادة القادر على تحقيق الأمل .. وفيه من الثقة بالنصر مافيه .

تأملات فى الآية الكريمة :

يلاحظ المفسرون : أن الله تعالى قدم الدخول .. على الخروج فى الآية الكريمة .

﴿ **رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق** ﴾ .

أولاً : تحدياً للمشركين بأن تمكينه من الخروج مفروغ منه .. ولايدخل فى دائرة الجدل .

وثانياً : تلطفاً به ﷺ . وتمكيناً للأمل فى نصر الله والفتح .

---

(١) أيسر التفاسير للجزائرى .

وثالثاً : أن ذلك إعلان مسبق بنجاح الهجرة ... وقبل أن تتم لأن ضمان الدخول يتضمن سلامة الخروج طبعاً .

العمل ... بعد الأمل :

كان العمل لإنجاح الهجرة صنو الأمل :

لقد فعل المهاجرون والأنصار كلاهما ... أفضل مايليق بهم : ترك المهاجرين أوطانهم وأموالهم .

ولم يكن أجمل من المهاجرين فى تضحياتهم إلا الأنصار فى إيثارهم .. والذين جعلوا لهم قلوبهم وطنا .. وأموالهم قسمة .

وذلك قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر « ٨-٩ ».

نماذج وصور :

ولك أن تأخذ على التضحية مثالاً فذا .. هو : صهيب الرومى كرمز من رموز المهاجرين .

ثم تأخذ على الإيثار موقف واحد من الأنصار هو : سعد بن الربيع .

لقد لحق المعتدون بصهيب فلما اقترح عليهم أن يترك لهم ماله .. قبلوا الاقتراح .. وفرحوا بما أوتوا .. وكان فرح « صهيب » أعمق وأوسع .. لقد فاز بالمبادئ .. بينما رجع التافهون بالمبالغ .. وياللهمة .. ترمى بصاحبها إلى بعيد . ثم .. يعلن سعد بن الربيع عن تنازله عن ماله ؟ .. هذا ممكن .. عن داره .. هذا محتمل ؟ .. لكن الذى لايحتمل أن يعلن عن تطليق زوجته .. لتكون زوجاً لصاحبه لو أراد .. وهكذا .. كم يكلف الإيمان أهله .. وإنهم لراضون .. بل سعداء بما يدفعون !! .

ثم ماذا عن (الذين جاءوا من بعدهم) . ؟

بعد الحديث عن المهاجرين والأنصار فى الآيتين الثامنة والتاسعة السابقتين جاءت الآية التالية مباشرة :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الحشر « ١٠ » .

لقد أدى المهاجرين دورهم .. فهاجروا .. وقام الأنصار بواجبهم .. فآثروا .

وبقى علينا ... على الذين جاءوا من بعدهم أن يسيروا على نفس الدرب : وفاء .. ودعاء .. وحباً لهم .

ومن أنبل صور الحب : أن نحب مبادئهم .. وأن يظل عملهم العظيم حياً فى ضمائرنا .. دروساً يصلح بها الله تعالى ماأبلت الأيام من عزائمنا..

ومن هذه الدروس ماأشارت إليه الآية الكريمة :

١- فالتعبير عن المكر بالفعل المضارع « يمكرون » يفيد استمرار هذا المكر .. فسوف يمكرون ولايفترون .. فلنواكب مكرهم بما يحبطه .. كإخوة لنا من قبل .

٢- ثم إن الله تعالى يقول : ﴿ **وإذ يمكر بك** ﴾ .. بك .. لابهم .. وهذا يعنى خطة المجرمين لضرب الإسلام .. حين يركزون على القيادة لتؤتى الدعوة من خلالها .. حتى إذا سقطت القيادة .. كانت الفوضى .

ومن ثم ... يعبث الذئاب فى حقل .. نام صاحبه .

٣- وإذا كان الحق تعالى هو الذى تكفل بإحباط كيد الأعداء .. فالقضية إذن فى يد القادر على حسمها سبحانه .

وإذن .. فما على الدعاة إلا أن يقوموا بدورهم والنتيجة على الله .. أما العنف .. أما الانفعال والتشنج .. فلن يغنى عن الحق شيئاً .

ذلك بأنه تعجل يحاول قطف الثمار قبل نضوجها .

إن الرســـول ﷺ لم يدخل المدينة إلا بعد أن هيأ الظروف المناسبة للدعوة لقد أرسل القراء والمعلمين بين يديه .. فلما فتحوا القلوب .. غزاها النور فأضاءت .

وقبل ذلك ... كانت حياة العربى سفراً دائماً .. وهجرة مستمرة ..

ولكن من أجل معدته .. ثم إذا به اليوم .. ولأول مرة يهاجر لا من أجل معدته.. بل من أجل عقيدته .

٤- لما أطاع الرسول ﷺ الأمر الشرعى بالصبر على تكاليف العقيدة -والمؤمنون معه - لما أطاعوا .. كان الكون فى خدمتهم .. وهذه حفنة من التراب .. تحبط مسعاهم .. وشبر من الأرض يمسك بفرس سراقة .

فإذا أردنا استعادة هذا التكريم فلابد أن ندفع ثمنه التزاماً بسنته ﷺ فى الإخاء .. والتسامح .. والصبر .

٥- ثم بسنة الذين صابروا فهاجروا .. وآثروا :

المهاجرون الذين تسلحوا بالعزة .. فلم يعيشوا متسولين ولاكلا علي غيرهم.. بل عملوا .. وكسروا الحصار الاقتصادى الذى ضربه اليهود علي المدينة فتاجروا .. وربحوا .. فحملوا السلاح بيد يحبها الله ورسوله .

والأنصار الذين أنفقوا .. احتساباً .. وتحت راية الأخوة الجامعة ولم ينفقوا منا أو أذى .

٦- إن هذا المكر الله تعالى .. لنا .. لحسابنا .. فماذا فعلنا لنستحق هذا الشرف العظيم .

لابد من الأمل ... ومن العمل :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى - ونفعل مثلما فعلوا . وماذا فعلوا ؟

(لقد علموا أهل الأرض أن فى الوجود شيئاً أقوى من الحديد .. وأمضى من السيف . وأحمى من النار . وأنكى من القنبلة الذرية .. هو الإيمان .

الذين أفاضوا على الحرب : الحق .. والرفق .. فجعلوها مقدسة مشروعة .

وأثاروها لله ، لاللكسب .. للخير .. لاللشر . فاستدولدوها الحياة والحضارة والسلام . وماكانت تلد إلا الموت والخراب والانتقام .

لم يكونوا نعاماً .. تحسن الفر بل كانوا أسوداً تحسن الكر)[1] بسلاح من صنع أيديهم سلاح : تصقله .. تشحذه .. ولم تكن تشحذه .. لم تكن تستجديه .

ويبقى الأمل متوهجاً .. ويبقى الأمل فى قلوب أمتنا بالإيمان قوياً وعميقاً .

وسوف يصير هذا الأمل أقوى .. وأعمق كلما نظرت اليوم إلى مكة المكرمة .. كيف كانت .. وإلى أى مجد صارت .

وذلك مايصوره الشيخ الطنطاوى فى قوله :

« كانت مكة قرية صغيرة .. متوارية بين الأخشبين : لم تدر بها

(١) من مقال للشيخ الطنطاوى .

«روما» ولم تحفل بها « القسطنطينية » فلما دوى فيها صوت محمد ﷺ ينادى : لاإله إلا الله ولارب سواه .. لاكسرى . ولاقيصر .. ولااللات ولاالعزى .. وأنها خابت وخسرت الأصنام كلها ... أصنام الحجارة . وأصنام القبور . وأصنام اللحم والدم . وأن الفضل بالتقوى . وأن العاقبة للمتقين .. وقعت معجزة المعجزات .. كبرت هذه القرية حتى أكلت مدن الباطل . ثم كبرت حتى ولدت مدن الخير والحق ثم كبرت حتى صارت أم الأرض كلها .

وخرج أبو بكر .. وعمر .. وكل إمام عادل . حقق فى الأرض أحلام المصلحين وكل قائد شق بسيفه الطريق إلى المدينة العادلة » .

ونضيف نحن : لقد أعلنت مدرسة « دار الندوة » إفلاسها .. وأغلقت أبوابها وذهب تلاميذها المشاكسون بددا .. والذين جمعتهم الدنيا .. مزقتهم الدنيا .. وإذا الأحباب كل فى طريق .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ... ولم يسمر بمكة سامر

وبينما الذين ضحكوا قليلاً ... يبكون اليوم كثيراً .. وإذا بمدرسة «دار الأرقم » بمكة المكرمة .. تصير جامعة .

وصار خريجوها جماعة تسيح فى الأرض تحت راية التوحيد تعلم الحياة فن الحياة .

تنير العقول .. بالعلم .. وتعمر القلوب بالحب .. وتشد الإرادة بالعزم... وغداً .. وفى روضات الجنات سيتذاكرون أجمل الذكريات .. ذكريات النجاح .. بعد مرارة الكفاح .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ المطففين « ٣٤-٣٦ » .

وهكذا تتحقق سنة الله فى الماكرين . كما تحقق فى الصادقين الصابرين .. وصدق الشاعر القائل :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى   أعز وأحداث الزمان تهون

فبات يرينى الخطب كيف اشتداده   وبت أريه الصبر كيف يكو



خواطـــر في

ذكـرى ميــلاده ﷺ



تمهيد :

من ذكريات القرية العزاز . . ذلك المهرجان المبارك . فى ذكرى ميلاده ﷺ . وفى تلك الليلة كان ذلك الانبهار بقصة ميلاده . . وحياته ﷺ ملخصة فى أبيات من الشعر . . أو مأثورات من النثر . . ينشدها الأشياخ . . تعبيرا عن حبنا لرسوله ومصطفاه ﷺ .

وتنقضى الليلة . . فينتهى الاحتفال . وتحتوينا مشاغل الحياة . .

ومع مرور الأيام . . بدت لنا من حياته ﷺ صور من العظمة التى لا يكشف عنها ذلك الاحتفال العابر فى ليلة الذكرى .

لقد قرأنا . . على قدر ما خلف من تراث عظيم فى مجال : الأسرة . . والتربية . . والدعوة . . والقيادة . . والجهاد .

ومن ثم . . ومع هذا الوعى بعظمة صاحب الذكرى ﷺ . . لم يكن قصارى احتفالنا بها تلخيص حياته . . والتركيز على ملامح الجمال فى خلقه . .

بل اتجهت بنا الآمال إلى تجلية نواحى العظمة فى خلقه ﷺ فكانت احتفالاتنا تنويها بمواقف من سيرته . . فى بيته . . ومع الناس . . بل من سيرة الذين تربوا فى مدرسته . . فكان هذا التركيز أجدى . . وأحرى أن يكشف عن نواحى الأسوة فى خلقة العظيم .

وهذه الصفحات التى بين يديك . . ما هى إلا هذه التأملات . . على مدى سنين طويلة . . كانت منا إسهاما فى إحياء الذكرى . . نجمعها اليوم فى هذا الكتاب تبصرة وذكرى . .

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾

فى هذا الماضى البعيد . . كان يستهوينا صوت الأشياخ الشجى النقى . . يرسم فى خيالنا صورة النبى العربى . . أحمر الخدين . . أكحل العينين !

لكن التجربة أكدت أن الرسول ﷺ أعظم من هذا بكثير . . وأن أولئك الذين يتأهبون للدخول فى الإسلام لا تعنيهم هذه الخصائص الجسمية . . بقدر ماكان يعنيهم ما كان يتمتع به من خلق عظيم وكيف كان ﷺ مبعوث العناية الإلهية . . وقبل ميلاده .

لقد كان ﷺ دعوة إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ البقرة ١٢٩

وإستجاب الله تعالى . . فى قوله عز وجل :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ البقرة ١٥١

إن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته . . هو سبحانه أعلم بالزمان المناسب . . فكانت الرسالة بعد قرون من المسيح . . وبعد ما درست معالم الهدى . .

وهو تعالى أعلم بها مكانا . . فجعلها فى ملتقى تجارى . . وأدب بى. . ودينى . . من شأنه أن يساعد على ذيوعها وانتشارها فى الأفاق :

ولو ظهر عليه السلام عليه السلام فى فارس . . لحاربته فارس . . ولكن العرب كانوا أليق البشر لتلقيها بما منحهم الله من سلامة الموقع . . وسلامة الفطرة المتحررة المهيأة لحمل الأمانة إلى العالمين .

ميلاد الإنسان :

ضاع لرجل بعير فنادى فى الطرقات . . من يرده إلى . . فله بعيران ! فقيل له : واحد . . باثنين ! ؟ قال : أنتم لا تعرفون متعة الوجدان !

ونستشعر مع الرجل المشوق لذة وجدانه بحيوانه العائد ، والذى يسترجع به قطعة من حياته . . من ذكرياته . . يحس معها بنشوة أروح لنفسه من ثمنها المضاعف ثم نتساءل : ماذا لو كان الضائع . وجود الإنسان نفسه ؟

ماذا يكون عمق المتعة لو ضاعت نفسك فى متاهات الحياة . . بين وهج المصباح أو رنين الأقداح . . ثم عاد بها إليك إنسان ؟

إن متعة الوجدان حينئذ تحس . ولا توصف !. . ومشاعر العرفان للرجل العظيم العائد إليك بوجودك لا تملك الوفاء بحقها . . ولو قدمت ملء الأرض ذهبا . . وذلك هو الرسول الكريم ﷺ. . الذى صاغ الإنسان من جديد . . ليكون أثمن درة فى عقد فريد .

لقد كان الإنسان ميتا فأحياه الله بالإسلام

*****

فى أعدل العصور الفارسية يفرض كسرى - العادل - الخراج . . ويتساءل أمام الشعب عما إذا كان راضيا ؟ فلا ينطق واحد بكلمة . . إلا ذلك الكاتب الذى تساءل عن أحقية الضرائب على عين غاض ماؤها ، وزرع لم يتم نضجة . مجرد سؤال مؤدب . . وجل . . وعلى استحياء.

ويتساءل كسرى عمن ينتسب إليه . . فلما علم بأنه من صناع الكلمة.. أمر بأن يقتله زملائه الكتاب بالمحابر التى أثخنته . .

وسقط الكاتب الحر يتشحط فى دمائه . . مضرجا بمداد الأقلام !! وعلى أنين الرجل . . أعلن القوم أنهم راضون . .

وفى بلاد الروم : فى نصف الكرة الغربى . لم يكن الإنسان أسعد من أخيه الفارسى حظا

كان المشهد الأثير فى حياة الناس عندما يصارع الإنسان إنسانا . . أو

ثورا . . فيسقط مضرجا بدمائه وسط الحشود المهللة للوحش . . يهزم الإنسان !! . . ولا عجب فقد كانت الشجرة مقدسة وكان الحيوان مقدسا ، وهما أغلى ثمنا من الإنسان بل ويقدم دمه قربانا لها . . لعلها ترضى ! .

فلما جاء محمد ﷺ . . ولد الإنسان على يديه من جديد حتى إذا مات وغاب خلف أسوار الحياة لايفقد قيمته : « لاتذكروا موتاكم إلا بخير «ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين . وإذا مات أحدهم فقولوا فيه خيرا » .

ولقد بلغ من احترام حياة الإنسان حدا كان ظلم إنسان واحد بين ملايين البشر خطرا ينبغى تلافيه :

قال أبو مسلم الخولانى لمعاوية : إنك لو عدلت مع أهل الأرض جميعا، جرت على رجل واحد . . لمال جورك بعدلك .

بل إن فكرة احترام الحياة وصلت إلى ذروة ليس وراءها وراء حيث احترام «معنى الحياة» ولو كانت حياة طير . . أو حيوان . . بإحسان معاملتها . . وإحسان ذبحها أيضا .

وهكذا . . وفى غمرة النور الوافد بين يدى خير وافد صحا النائم يوما . ورأى النور فما أغفى ! . . ولكنه انتفض عملاقا جديدا يبنى الحياة من جديد .

وتحولت الخطوات الراعشة . . الواجفة على حصباء مكة . . حركة

تغمر الوجود كله بالنور . . والبركة . والعربى النافر من الحق كالغزال الشارد تحكمه من دين الله ضوابط فإذا هو فارس يمتطى صهوة جواده الجسور .

وفى عقر دار الحضارة فى فارس يمزق البساط الناعم . . ويمزق معه قيما زائفة «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها »

وتسمع معى دوى القنبلة التى فجرها العربى المسلم . . «ربعى بن عامر » حين يقول : لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها! . .

أى ضيق كان فيه كسرى ؟ . . وأية سعة كان فيها العربى البسيط ؟! والمعادله سهلة . . وحلها ميسور . . لقد وجد المسلم نفسه . . فولد بها ميلادا مباركا بالعقيدة التى تحولت بها قبضة التراب . فارسا يركب الأخطار . . ويتسنم قمم الجبال فى عالم صار على اتساع مملكته . . وجنته. . فى الوقت الذى ماتت فيه قيم الكمال والجمال فى قلوب عليها أقفالها . وضاعت مفاتيحها فى بحر الظلمات !

وما أضيق الدنيا لو كنت تملك كل ألوان المتع فيها . . إذا كنت مع ذلك تخسر نفسك !

*****

من مزاعم الشيوعية

في إطار الحمله الرامية إلى التشكيك في مبادئ الإسلام يزعم الزاعمون أن انتصار الإسلام في بواكيره الأولى كان نتيجة لحرب قامت بين يسار اقتصادى تمثل في الطبقات الفقيرة ، وبين يمين رأسمالى تمثل في أثرياء مكة .

فبواعث الفتح الإسلامى - في زعمهم - كانت مطامح اقتصادية . . أو على الأقل كانت هى العامل الرئيسى . .

والمقصود من هذه الفرية استبعاد أن يكون وراء هذه الفتح المبين أشواق إلى الله والدار الآخرة . وإنه العامل الاقتصادى وحده . . يسوقهم إلى ماكانوا يفعلون . .

أما إحقاق الحق وإبطال الباطل . . . فلم يكن وارداً في أذهان القوم !

وحين نسأل القرآن الكريم ، وحقائق التاريخ الإسلامى نقف على الجواب الرادع لهذه المفتريات . . والذى يضع الرعيل الأول في مكانهم الصحيح . . إيمانا بالله عز وجل ونصرة لدينة إلى حد حملهم على الزهد في الدنيا . . والعمل للآخرة على نحو غير مسبوق ولا ملحوق .

وإنه إذا كان في الطرفين من يبحث عن الدنيا . . وتغريه كنوز الأموال فإنماهم أثرياء مكة حينئذ . . وليس هم فقراء المسلمين ؟ !

شاهد من القرآن الكريم :

بينما كان الرسول ﷺ جالسا مع الفقراء أمثال عمار وصهيب وبلال إذ أقبل نفر من المشركين رأوهم حولهم حقروهم وقالوا :

يارسول الله لو جلست في صدر المجلس وأبعدت عنك هؤلاء . لجالسناك . . فرارا من رثاثة حالهم . . وما عليهم من ثياب مخضبة بالعرق . . عرق العمل والكفاح فى سبيل لقمة العيش بالجهد الشريف .

ورفض الرسول ﷺ طردهم وقال « وما أنا بطارد المؤمنين » .

وقد حاول الأغنياء أن يقدموا بعض التنازلات فى سبيل التفرد برسول الله ﷺ فاقترحوا :

نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا .

فإن وفود العرب تأتيك . فتستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد .

فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا . . . فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

قال نعم .

قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتابا . . فأتى بالصحفة ودعاعليا ليكتب فنزل جبريل بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣) ﴾ الإنعام «٥٢ - ٥٣»

عندئذ ألقى رسول الله ﷺ الصحيفه ثم دعانا وهو يقول :

(سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام . . وتركنا . . فأنزل الله تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (٢٨) ﴾ الكهف ٢٨

وقفة بين يدى هذه الآيات :

فالنبى ﷺ منهى عن طرد المؤمنين الذين تحملوا معه أعباء الدعوة .

وهذا النهى له ما يسوغه .

١ - فاقتراح طردهم صادر عن مراكز قوة تريد احتواء الدين لحسابهم الخاص .

٢ - وفى سبيل ذلك - كما أشار مفسرون - يتهمون الفقراء فى إخلاصهم زاعمين أنهم لم يؤمنوا إلا من أجل لقمة العيش أو الجاه . . وهى نفس التهمة التى يرددها الشيوعيون اليوم .

٣- وهذه التهمة مردودة على أصحابها . . لأن هؤلاء الفقراء :

(يدعون ربهم بالغداة والعشى) أى دائما . . يرطبون ألسنتهم بذكر الله تعبدا .، . (يريدون وجهه) ولا يضمرون غرضا دنيويا.

٤ - وعلى فرض أنهم مغرضون . . فلك الظاهر والله يتولى السرائر . . ولن تحاسب على أعمالهم كما أنهم لن يحاسبوا على عملك .

٥ - ولأنهم يريدون وجه الله . . فهم مخلصون . . وهذا الإخلاص مانع من طردهم بل داع إلى استبقائهم .

٦ - إنهم يشكلون «القوى العاملة» فى المجتمع . . فهؤلاء المسلمون الفقراء رآهم المترفون من المشركين يجدلون الحبال . . وينسجون الصوف فلم يعجبهم ذلك . . ولن يكون مزاجهم الخاص حكما فى مصير ركيزة الدعوة والدولة معا .

٧ - وتأمل الآية الثانية : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) تعكس الحسد الكامن فى قلوب المترفين لهذه القوى المؤمنة العاملة الراغبة فى الآخرة أن تكتفى بعدم طردهم . . بل لا بد أن يأخذ تكريمهم مداه . . إلى حد لا تتركهم أنت وتقوم عنهم بل يجب أن تبقى أنت ولا تغادر المكان . . حتى يقوموا هم أولا . .

وذلك ما تشير إليه آية سورة الكهف (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم . .)

غير أن هذه الآية الكريمة تضيف معنى جديدا أيضا هو التحذير من طاعة المسرفين على أنفسهم وحماية المسلمين من مكائدهم . .

شاهد من السنة المطهرة :

وحين ذهب الفقراء شاكين إلى الرسول ﷺ من الأغنياء . . لم يكن مفاد الشكوى طمعا فى جاه ينافسون به الأغنياء . .

لكنهم تأملوا فوجدوا أن ثروة الآغنياء المسلمين تتيح لهم عملا أكبر يدخرون به ثوابه عند الله .

فقالوا : ذهب أهل الدثور بالأجور !

إنهم لم يقودوا مظاهرة دموية يحطمون بها العمران فى سبيل المال أو المنصب .

ولكنهم يعلقون أبصارهم على شئ واحد هو : ثواب الله . . والجنة .

ولما كان الأغنياء قد فازوا بنصيب الأسد شكا الفقراء إلى الرسولﷺ ليجد لهم حلا .

ولم يكن ذلك الحل - مثلا - إبعاد المسلمين الأغنياء من رحمة الله ليستأثروا هم - الفقراء - بالدنيا . . والآخرة معا . .

ولكنهم يطمعون فى أن يكونوا أمثالهم شركاء فى رحمة الله وفضله سبحانه .. وفتح الرسول ﷺ باب الأمل .

ودلهم على الطريق إلى الله وثوابه تعالى عن طريق التسبيح والتحميد والتكبير .

وعادوا بنعمة من الله وفضل .. وبقيت علاقتهم الأخوية بالأغنياء المسلمين أقوى مما كانت .

ومن ناحية أخرى كان الأغنياء مشغولين بغيرهم لم تعزلهم ثرواتهم عن إخوانهم الفقراء وكانوا كما حكى القرآن الكريم :

﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ البقرة «٢١٩» .

﴿ **يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين** ﴾

البقرة « ٢١٥» .

يسألون عن القدر .. وعن مصارف الصدقة .. ليصادفوا موقعها .. فلم تكن هناك حرب . ولادماء .. ولاضحايا .. وإنما .. كانوا :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح « ٢٩» .

وهذا الصراع الوهمى والذى صورته تلك التهمة التى نحاول ردها اليوم .. لم يكن له وجود إلا فى أدمغة تريد الشر لا بالإسلام وحده .. بل بكل دين .. وبكل قيمة عليا من قيم الإنسانية الرفيعة .

هذه القيم التى لم يرشح هؤلاء الطاعنون فى الإسلام ليصعدوا إليها

فحاولوا إلقاء ظلال الشك .. على حقائق فى مثل ضوء النهار .. لعلهم يلحقون بالإسلام ضررا .. ولكن .

لن يضر البحر أمسى زاخرا   إن رمى فيه غلام بحجر

ولقد كان من بركات هذا الأسلوب الإلهى أن أسلم « عيينه بن حصن الفزارى » وكان ممن اقترحوا إبعاد فقراء المسلمين .

أسلم وحسن إسلامه .. وكان من الممكن أن يستغل فرصة رد القرآن رأيهم فى التنكيل بهم وفضحهم بالنظر إلى مطلبهم القاسى .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .. وبقى الباب مفتوحاً ليدخل الناس فى دين الله أفواجاً .. دخولاً غير مسبب بعرض الدنيا .. ولكنه الإخلاص والعمل طبق ما يريد الإسلام .. بالحكمة والموعظة الحسنة .. التى زاد بها مجتمع المسلمين امتدادا . ولم يكن بالإسلام حاجة مع نصاعة مبادئه إلى إثارة الفتن بين طبقات الأمة ..

كما تفعل الشيوعية التى تقيم حياتها على خلق النزاعات خلقا . ليخلو لكبرائها العمل فى هذا الجو الملبد بالغيوم .

وشاهد من التاريخ :

لما أراد « صهيب بن سنان » الهجرة – وهو واحد ممن اعترض على وجودهم حول الرسول ﷺ – قال له كفار قريش :

أتيتنا صعلوكا حقيرا .. فكثر مالك عندنا .. بلغت من الثروة ما بلغت .. ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! ... لا .. والله لانتركك ترحل أبداً .

فقال لهم صهيب : تعلمون أننى أحسن من يرمى بالسهام !

ولا أخطئ أحدا إذا رميت !..

وأستطيع أن أقتل عشرة منكم . قبل أن تمسكوا بى ! ولكنى أعلم أنكم تطمعون فى مالى . . . فما قولكم إن تركت لكم مالى الذى كسبته فى مكة على أن تنصرفوا .

قالوا : أنصفتنا بما عرضت علينا !!؟

فرمى لهم حمله من مال . . فانصرفوا عنه .

وسمع النبى ﷺ بقصته معهم فقال : «بخ . . بخ» . . كلمة استحسان لفعله ، بخ صهيب !

وإذن فلم يكن صهيب حين جلس مع إخوانه حول الرسول ﷺ عاطلا . . يطلب اللقمة . . أو طامعا يريد المنصب !

ولكنه عامل أمل رصد قواه لخدمة الدعوة . وكان عسكريا ممتازا فى إصابة الهدف . بالإضافة إلى زهده فى مال يحول بينه وبين العمل لدعوته .

وإذا كان هناك طالب مال فهم المشركون الأغنياء الشاهدون على أنفسهم بذلك فى قولهم . . «لقد أنصفتنا بما عرضت علينا »

فالإنصاف فى منطق المؤمنين . . أن يبيعوا الدنيا . . ليشتروا الآخرة وأن يرصدوا وجودهم المادى والأدبى لخدمة دعوة لم تقم على المال . . وإن لم تستغن عنه فى صراعها الطويل مع أعدائها . وإنما - كما يفيد الحديث الشريف - نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد فى الوقت الذى يهلك فيه آخرها بالبخل والأمل .

وهو ما يريده الشيوعيون المارقون . . فليحذر الذين يخالفون عن أمر الحق . . وليفتح الشباب المسلم أعينه على حقيقة ما يراد به .

انصر أخاك

لايكفى لبراءتك من جريمة ماأنك لم ترتكبها ..

فقد يباشر غيرك أسبابها .. لكنك ساكت لاتنطق .. جامد لاتتحرك .. وحينئذ .. فأنت شريك فى الإثم وإن لم ترتكب جرماً .. بما مهدت إليه من سبيل بسكوتك وجمودك .. وماترتب عليهما من تفرد الظالم الحقيقى بالحركة على المسرح وحده .

وكان من الممكن التصدى له .. وكسر شوكته .. وهو بعض مايفيده قوله ﷺ:

« **أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً** »

انصره مظلوماً .. بالوقوف إلى جانبه ضد العدوان المتربص .. وظالماً بمنعه بالقوة .. أو بالكلمة .. أو حتى بتمنى توقفه عن الظلم .. وذلك أضعف الإيمان .. فإذا غلبت عليك سلبيتك .. إذا هبط بك خنوعك .. فلم تقو على مجرد الأمل فى توقف العدوان .. فأنت شاهد على نفسك بالموت الأدبى ! .. من حيث لم يبق الخنوع فى نفسك بقية من إيمان يضمن لك الحياة .

إن انفعال الغضب قد يحرك يدك بالأذى .. وقد يسوقك الحرص على مالك وولدك إلى ظلم يأباه طبعك .. لكنه فرض عليك .. وربما تراشقت مع زميلك بتهم كلاكما برئ منها ..

وإذن .. فليس فى إمكانك فض نزاع أنت طرف فيه .. وفى غيبة عقلك فى لحظة للغضب ..

وزمام المبادرة فى يد هذا الصديق الذى يقف بينكما .. لأنه يحتفظ بتوازنه أمام معركة ليس طرفاً فيها ! .. ومن ثم فهو أقدر منكما على فض النزاع .. لو أراد ؟! .. لكنه يسكت عن رضا .. أو عن شماتة .

وإنه ليمهد بهذا السكوت لسلسلة من الاعتداءات بين خصمين كان من الممكن ألا يحدث بينهما خلاف .. لو قال الواقفون على الأعراف كلمة حق .. تضع النقط علي الحروف .. وتهز كيان المعتدى .. فيعود إلى صوابه .

مقاومة الظلم :

* وهكذا ينشط جنود إبليس .. من شياطين الجن ليمارسوا دورهم فيتسع الخرق .. بعد أن ماتت النصيحةعلى لسان شياطين الإنس .. من أصدقاء الطرفين !.

ويغالب النفس إحساس بأن هؤلاء الساكتين عن الحق أدخل فى باب الجريمة ممن باشرها .. أحياناً .. على الأقل .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ **واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾

نرى كلمة «خاصة » فى موقعها من الآية الكريمة وهى تمسك بتلابيب

الذين مهدوا للظلم تمهيداً بسكوتهم عليه .

إنها تبدد من أدمغتهم مازينه الوهم لهم من أن الدمار ينصب فقط على من باشروا الظلم والعدوان .. دونهم .. لأنهم مستضعفون ؟! .

ثم تبين فى نفس الوقت أن الفتنة لاتدمر الظالمين « خاصة » كما تتوهمون .. بل يقع على الساكتين كفل منها .. ﴿ **وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

ظلموها .. بسكوت ضاع فيه الحق وانتصر العدوان .

لقد منحوه بمهادنته قدرة فوق طاقته .. فصال وجال .. فى الوقت الذى يكشفون فيه بهذا السكوت عن نواياهم الحقيقية فى باب العدوان .

إن السكوت عن الانحراف .. رضا به .. وهو بهذا المنطق شهادة على النفس باستعدادها لمثله .. لو سنحت لها الفرصة ! ..

من أجل ذلك استحق المباشر والساكت معا أن يكون كلاهما « طاغية» .. بنص الآية الكريمة التى تحكى على لسان المستكبرين قولهم للمستضعفين : ﴿ **وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين** ﴾ .

إن الذهن - بادى الرأى - يدمغ المتكبرين بوصف الطغيان وحدهم .. ولكن الآية الكريمة تقطع على الذهن طريقه فتبين أن وصف الطغيان ليس أولى بطائفه دون أخرى .

لقد جاوز المتكبرون الحد .. استعلاء .. فى نفس الوقت الذى جاوزه المستضعفون .. استخذاء فكانوا معا .. أحق به وأهله !

ذلك بأن الإفراط والتفريط كلاهما بعد عن سواء الصراط ..

الانتصار للحق :

وفى سبيل تدعيم هذه الحقيقة نرى الجواب القرآنى حاسماً عندما طلب الضعفاء المتبعون مضاعفة عذاب من أضلوهم فى قوله تعالى : ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ جوابا لقولهم : ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار** ﴾ .

وهكذا .. لكل ضعف خاص به .. وعذاب يحيق به كفاء مامكن للباطل .. سكوتا عليه .. أو مباشرة له .

وتلك هى الحقيقة التى ينبغى أن تملأ وعى المسلمين اليوم .. وإن شئت فقل : تلك هى مشكلتهم التى تبحث عن حل حاسم .

إن بعض المسلمين يؤثرون الراحة لأنفسهم .. عندما ينأون بها على حلبة صراع يدور بين طرفين . مادام ذلك الصراع لايمسهم مسا مباشرا .

ربما كان دافعهم إلى ذلك هو الإبقاء علي رصيدهم من الأصدقاء أن ينقصه التدخل .. كما صرح بذلك الفليسوف « بياس » الذى نصح بالسكوت إزاء صراعات الأصدقاء حرصاً على صلاتنا بهم أن تتأثر .

والنتيجة ؟ ..

النتيجة معروفة بطبيعة الحال وهى : تفشى الفساد فى بيئة أحنت رأسها للشر .. ولن تستطع أن تنتصر للحق والخير .

ومع الأيام .. سينقص رصيدك من الأصدقاء : رضيت أم كرهت .. !

إن الصديق الذى هادنته بالأمس .. سيكتسب بمهادنتك له قوة .. يتهددك بها بعد حين ..

والإحساس بالمرارة لن يزايل ذلك الذى تركته يغالب الموج وحده .. ولم ترسل له عبر الموج الغاضب .. ولو قشة صغيرة تقترب به من الشاطئ الآمن ..

وربما احتفظ لك ببعض الاحترام .. لكنه لن يمنحك حبه أبداً !

وإذن .. فقد خسرت الطرفين معا .. وكان من الممكن لو تدخلت أن تكسب حب هذا .. واحترام ذاك .

إن الإسلام - بإثارته حماسك للحق لتكون إجابيا إزاء الانحراف - إنما يحميك من ظلم متوقع . ينشأ من هذا الظلم الواقع .

وعليك أن تقول كلمة الحق الصادعة اليوم .. قبل أن تتلمسها غدا .. فلا تجدها .

وتلك سنة الله تعالى فى خلقه .. ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

أهمية الإخلاص

« إنما الأعمال بالنيات » الحديث .

يقول بعض العلماء : « لو كلفنا الله تعالى عملا بلا نية .. لكان من تكليف ما لايطاق » !!

ويفسر العلماء ذلك بقولهم :

(وهذا صحيح : إذ كيف تعمل وأنت عاقل مختار غير مكره .. كيف تعمل عملاً بلا نية ؟!

هذا مستحيل ! ... لأن العمل ناتج عن إرادة وقدرة .. والإرادة هى النية)

ومع النية لابد من تحديد غاية العمل .. فإذا لم تكن نية ولاغاية .. أهدر العمل . وصار من قبيل القضاء والقدر المحض .

ولأن النية على غاية ماتكون الأهمية .. كانت مناط صحة العمل واختلفت الأحكام تبعا للنية وجوداً وعدما :

يقول الله تعالى : ﴿ **وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور** ﴾ آل عمران « ١٥٤ » .

ولما كان الخطأ خالياً من النية .. كان من العدل الإلهى رفع الجناح :

يقول تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت**

قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ الأحزاب «٥» .

أما إذا تعمدت القلوب فإن الخطأ عندئذ يصير بالقصد خطيئة .

من ثمرات النية :

ترتب على ضرورة النية أمور منها كما لاحظها الفاقهون :

١- لاينظر إلى الأعمال طبق مظاهرها .. ولكن الحساب على أساس بواعثه.

٢- لو خلت الأعمال المفيدة من النية .. حبطت .. ثم حوسب فاعلها على النية .. حساب المنافقين .

٣- المشروعات الخيرية .. مهما كانت ضخمة .. إذا لم تستهدف رضوان الله تعالى .. فإنها باطلة !

٤- وفي نفس الوقت : إذا صدقت النية .. وعجز المسلم عن العمل المنوى .. أضيف العمل إلى حسابه تفضلاً من الله وكرما .. وذلك عزاء وسلوى لكل راغب في الإصلاح .. ناوٍ للخير .. إذا هم بمشروع خيرى فلم يتم .. لأمر خارج عن إرادته .. ليظل ماضياً عازماً على الخير .. بلا يأس أو قنوط ..

٥- وتتسع دائرة فضل الله تعالى على عبده المسلم .. حتى إنه لوتوقف عن عمل ما .. لمرض أو سفر .. احتفظ له بثواب هذا العمل :

يقول ﷺ : (إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً) (١) .

وقد وعى سلفنا الصالح قيمة النية فكانوا عند حسن الظن بهم : مخلصين .. ومنهم « محمد بن الحسن » :

كان رحمه الله يصلى المكتوبة فى المسجد .. ويصلى النوافل فى البيت .. فرارا من الرياء !

وكان من عمق إخلاصه أنه كان يقول :

لو استطعت ألا يرانى الملكان الموكلان بى .. لفعلت ؟!!

لقد كان ابن الحسن مؤمنا : والمؤمن واقع بين : هوى .. هو أكبر منه .. وإيمان يحس المؤمن أنه أصغر من هذا الإيمان .. ومن ثم يحمله الإحساس بالضآلة على مواصلة الدقة فى عمله والإخلاص فيه لعله أن يزداد إيماناً .

فإذا عمل عملا : لايعمله رياء .. وإذا ترك عملا .. لم يتركه حياء ..

وإنما هو محكوم دائما .. بما يفرضه الإيمان من تكاليف !

وقبل هذا فهو مأمور بما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ البينة «٥» .

---

(١) أخرجه البخارى - كتاب الجهاد ، رقم ٢٩٩٦ .

من حسن النية إلى حسن التصرف :

قال ﷺ: « ياعائشة : لولا قومك حديث عهدهم بكفر - أو بجاهلية - لنقضت الكعبة : فجعلت لها بابين : باب يدخل الناس . وباب يخرجون »[1].

ذكر البخارى رحمه الله تعالى هذا الحديث تحت عنوان :

(باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا فى أشد منه)

ومعنى هذا : أن الشئ قد يكون فى ذاته حقاً .. ولكن لايعمل به فى مرحلة ما .. فراراً من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على تسرعنا لو عملنا به .

بدليل أنه ﷺ كان يرى - وهو المؤيد بالوحي الأعلى - كان يرى نقض الكعبة حجرا حجرا .. ثم إعادة بنائها مرة أخرى علي قواعد إبراهيم عليه السلام ... ثم يجعل لها بابين .. لابابا واحداً ..

ورغم صحة العمل وسلامته إلا أنه نظر فى العواقب .. فتوقع رفض الناس لهذا العمل .. من حيث كانوا حديثى عهد بجاهلية ..

والأمر على ماجاء فى فتح البارى : (لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة جداً فخشى ﷺ أن يظنوا - لأجل قرب عهدهم بالإسلام - أنه ﷺ غير بناءها ليتفرد بالفخر عليهم فى ذلك) .

(١) البخارى ، كتاب العلم ، جـ١ ، رقم ١٢٦ .

وقد تسمع اليوم فتى عميق الإخلاص .. شديد الحماس فى مواجهة منكر ما .. وقد يقسم أنه : لن تأخذه فى الله لومة لائم .

ولكن الظرف غير مناسب لتغيير المنكر .. وبالتالى : فالحماس غير مناسب وغير كاف أيضاً :

ذلك بأن المشكلات لاتحل إلا : بدراسة التاريخ .. ثم فهم السنن التى تتحكم فى مسيره .. ثم الوعى بالقرآن والسنة .

ومن الوعى بالسنة هذا الحديث الذى توقف فيه ﷺ عن نقض الكعبة خوفاً على المسلمين من العاقبة !

وماظنك بجندى - مثلاً - يرتكب مايوجب الحد والحرب دائرة .. حامية الوطيس .

هل يكف الجيش عن النزال حتى يقيم الحد .. ومايترتب على ذلك من خلخلة الصف .. وفى ظروف يكون للثانية الواحدة دورها فى سير المعارك .

إنه إذا كان من مصلحة الدعوة أن نقيم الحد عندئذ .. فإن مصلحتها أيضاً أن نواصل الكفاح .. إلى أن يحين وقت القصاص .

إنها إذن مشكلة النظر فى العواقب .. والتى يغيبها الحماس :

يقول ابن الجوزى :

(ماعتمد أحد أمراً .. إذا هم بشئ .. مثل التثبت :

فإنه متى عمل بواقعة .. من غير تأمل للعواقب .. كان الغالب عليه الندم .. ولهذا أمر بالمشاورة :

لأن الإنسان بالتثبت يفتكر - يطول تفكيره - فتعرض على نفسه .. وكأنه شاور . وقد قيل : خمير الرأى خير من فطيره !

وأشد الناس تفريطاً : من عمل مبادرة فى واقعة . من غير تثبت ولااستشارة خصوصاً فيما يوجب الغضب .

وكم غاضب قتل وضرب ، فلما سكن غضبه بقى طول عمره فى الحزن والبكاء والندم . وكم من ندم يتجرعه الإنسان فى باقى عمره وعتاب يستقبله بعد موته وعقاب لايؤمن وقوعه . كل ذلك للذة لحظة .. كانت كبرقد) [١] .

إن حسن نية المغنى لابد أن يتبعه حسن التصرف .

ومن حسن التصرف أن تفعل الشئ : فى زمانه .. ومكانه .. ومحله .

وقد تسمع عن رجل أو امرأة أسرف على نفسه فى مجال لايشجع على طاعة الله .. ثم .. وفجأة .. يقرر العودة إلى الله على يد فتى مؤمن غيور .

(١) صيد الخاطر ، ٤٦١ - ٤٦٢ .

وأرى أن يظل هذا التائب فى نفس الوسط الذى كان فيه مرحليا على الأقل داعياً إلى الله بسمته الجديد .. وذلك أجدى من أن تفرض عليه .. وفور توبته أن يصلى الفجر .. جماعة .. مع أن أطياف الماضى الكئيب .. لم ترحل كلها من خياله .. وكيف نضمن نجاح التجربة مع رجل كان منذ ساعات مع الكأس .. ولاينام إلا قبيل الفجر .. ثم نطالبه فى اليوم التالى أن ينهض مشتاقاً ؟

وأقول للفتى الغيور ماقاله علماؤنا :

إن أعداءك يسيئون النية .. لكنهم يحاولون إحسان التصرف نفاقاً .. فلاتدعهم يكسبون بالنفاق القضية !!

صور من بيت النبوة

كان الفتى « مهران » مولدا .. لم يكن عربياً خالصاً .

ولنستمع إليه وهو يروى قصته فيقول :

اشترتنى أم سلمة رضى الله عنها . فأعتقتنى .. واشترطت على أن أخدم النبى ﷺ ما عشت .

فقلت لها : وأنا ماأحب أن أفارق النبى ﷺ .. ماعشت ! (١) !

لكنه سمى من بعد سفينة . وقال فى سبب ذلك :

سمانى رسول الله ﷺ سفينة ... لأنه ﷺ خرج يوماً ومعه أصحابه ، فثقل عليهم متاعهم ، فقال لى :

« ابسط كساءك » فبسطته ، فحولوا فيه متاعهم . ثم حملوه على .

فقال رسول الله ﷺ :

« احمل .. فما أنت إلا سفينة » (٢) .

---

(١) صفة الصفوة : / ٦٧١ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند – ٢٢٠ .

تمهيد :

قد تتشابه الأعمال فى مرأى العين .. لكن الاختلاف بينها قد يكون بعيداً .. بعيداً .. عندما توضع على محك الإيمان .

خذ مثلا قصة ذلك الرجل البخيل الذى استخفه الإعجاب بعبده يوما فأعتقه! : كيف ؟

لقد قال هذا السيد لعبده : جهز مائدة الطعام . ثم أغلق الباب .

فقال له العبد : لاسيدى .. بل أغلق الباب .. أولاً .. ثم أعد مائدة الطعام .. فأصدر السيد قراره الفورى . بتحرير هذا العبد الذكى الذى استطاع بالحكمة .. والوعي بمزاج سيده أن يكسب حرية لم يدفع لها ثمنها .. إلا الكلمة التى كانت أثقل فى ميزانه من الذهب !!

فإذا انتقلنا إلى ابن عباس رضى الله عنه وجدناه وقد حرر واحداً من عبيده شكراً لله أن لم يكن مثل رجل أساء إليه .. فكان تحرير العبد اعترافا بنعمة الخلق الذى من الله تعالى به عليه .. فنجاه به من السقوط فى حمأة الإسفاف . كهذا الذى أساء إليه .

لكننا فى موقف أم سلمة – رضى الله عنها واجدون للموقف مذاقاً آخر .. يستحق أن نطيل الوقفة بين يديه .. لنرى .. وفى بيت النبوة .. كيف كانت قيمة الإنسان .. فى بيت الرسول الإنسان .

عاشقة الحرية :

لقد كان مهران خادماً .. بل كان عبداً .. ومع ذلك .. فقد دخل التاريخ من أوسع أبوابه . عندما ساقته أقداره عن طريق أم سلمة ليخدم أشرف من قذفت به أرحام الأمهات :

ولقد كان فى استطاعة أم المؤمنين رضي الله عنها .. كان فى استطاعتها أن تستبقى مهران فى قبضتها عبدا .. يخدمها .. ويخدم الرسول ﷺ .. فى نفس الوقت .. مستمتعة كغيرها من سيدات القصور .. بمشهد العبد ذاهباً .. آيبا .. مستسلماً .. ولكن هيامها بالحرية .. وهى ثمرة الإيمان .. طغى على هواتف النفس . وغرور التملك .. وزهور المجالس .. فكانت متعتها الأثيرة أن تحرره .. ليزيد الأحرار واحدا .. لقد أدركت أم سلمة رضى الله عنها بحسها البصير أنها تفتح بالحرية مدارك مهران كلها .. حتى يستطيع أن يعب من جلال النبوة عبا .. وأن يستقبل واردات الهدى .. بقلب حر متفتح .. ثم ينقلها للأجيال من بعده آيات مبصرة .. إنها من قوم مؤمنين .. متقين : يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة يحملهم على هذا الإيثار .. إرادة حرة .. فى مجتمع من الأحرار ..

وإذا كانت « الدنيا حلوة خضرة .. » [1] .

---

(١) رواه مسلم .

فحلاوتها .. تحرض النفس على طلبها . وخضرتها .. تستهوى العين.. فالنفس .. والعين .. معا .. من ورائها .

ولكن الأبرار – وأم سلمة منهم – تركوا مايتركهم .. وماتت الدنيا فى صدورهم .. فلم يحبوها .. وإذا دعتهم عقولهم إلى إيثار الأنفع .. فإن لهم من إيمانهم ومروءتهم مايؤثرون به .. الأرفع .

أولئكم الذين: بهم تزداد المنافع وتزداد المجامع !!

إنها مدرسة الرسول ﷺ .. يقيمهم الله تعالى حجة على الماديين المغرضين .. القائلين بأن الإسلام كان ثورة يسار ضد يمين ..

كان ثورة تحركها المطامع إلى المنافع .

وكذبوا :

١- فقد عرض عليه ﷺ الملك والزعامة من قبل العرب – وهم الأوفياء- فرفض رفضاً قاطعاً كل آمالهم .

٢- ولقد عذب المسلمون عذاباً كان من الممكن إعفاء أنفسهم منه .

٣- ولقد حوصروا حتى أكلوا ورق الشجر .

٤- ثم تركوا بالهجرة أموالهم .. بل أولادهم ... فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله .. وماضعفوا وماستكانوا .

وما كان إلا أن آثروا .. لاباللقمة .. ولكن بالصفقة الغالية .. بالعبد . يحرر .. فيختل بتحريره ميزان البيت .

ولكن .. يعتدل به ميزان الإسلام .

من فقه أم سلمة :

ولاحظ من فقه أم سلمة رضى الله عنها أنها أعتقت مهران أولاً .. بلا شروط .. وإنما جاء الشرط متأخراً .

إن المنة المشروطة قد تحدث نوعاً من الضغط على الأعصاب .. ومن ثم لاتحقق النعمة انبساطاً فى نفس المنعم عليه ..

فإذا تأخر الشرط .. فإن ذلك يعنى اختفاء معنى الضغط .. وبالتالى يحس المنعم عليه بطعم الجميل كاملاً غير منقوص ولقد تمت سعادة الطرفين حين كان الشرط على هواه .

فما أسعده بتكليف .. لو لم يؤمر به .. لسعى إليه !!

الزوجة الودود :

وكانت أم سلمة تلك الزوجة الودود .. التى تجعل متعتها فى التحبب إلى زوجها .. التى تتفانى فى إرضائه .. تفانياً لا شك عائد إليها حدبا عليها . برا بها .

لقد كان عطاؤها على قد وفائها .

وإذا كانت المشاكسات من الزوجات يتفانين فى تعكير مزاج الزوج .. وإحراق ماتبقى من أعصابه فى دوامة الشجون .. فإن أم سلمة لتأخذ من ذاتها .. لتضيف إليه .. ولتكون هى وعبدها ملك يديه .. تدعيما للدعوة .. إصلاحا لحال الداعى حتى يتفرغ للبلاغ .

الصفقة المباركة :

لم تكن أم سلمة رضى الله عنها تتوقع أن يصادف شرطها هوى فى نفس مهران إلى هذا الحد .

لكن هذا الشرط كان محققا حلم أيامه ولياليه .. وهو أن ينال شرف خدمته ﷺ.. مابقيت فيه حياة .. وها هو ذا حلم أيامه ولياليه .. يتحقق .. ومع مخدوم .. صارت خدمته أعز أمانيه !

سفينة سيد القوم :

وصار مهران .. سفينة .. بعد ذلك .

ثم تحول رقيق الأمس بهذا الاسم إلى « سيد القوم » لأنه كان خادمهم !

والقصة كما يرويها « سعيد بن جهمان » قال : سألت سفينة : قلت : ولم سماك سفينة ؟ قال : خرج ﷺ ، ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم .

فقال لي :

« ابسط كساءك » فبسطته .. فحولوا فيه متاعهم . ثم حملوه على . فقال رسلو الله ﷺ :

« احمل .. فماأنت إلا سفينة ! » .

فانظر إلى الرائد الذى لايكذب أهله .

كيف يجعل من الدعابة البريئة . غير المتكلفة .. كيف يجعل منها وسيلة تنبسط بها نفس المأمور .. ليعينه الانبساط على التحمل .

وإنه ليحقق ﷺ بها .. مالا يحققه العنف .. ومايترتب عليه من ضغط على الأعصاب .. يؤثر حتما فى سلامة الأداء .. فيقل النتاج .

إنه أسلوب من أساليب الترفيه الحلال .. يتجدد به النشاط .. وتستأنف به الإرادة مرحلة من العمل جديدة .. ومفيدة .

خادم الحاكم يخدم الأمة :

ثم تأمل كيف كان خادم المسؤول خادم الأمة .. ولم تكن الأمة خادمة له .. متوددة إليه !

وتأمل مرة أخرى كيف حقق ذلك الترفيه الحلال ثمرته حين استجاب الخادم للتكليف علي صعوبته إلى الحد الذى استعان برفاق السلاح الذين أعانوه على أن ينهض به .

ويا له من خادم .. قوى .. أخذ حقه من الغذاء والراحة .. حتى تمكن من أن يحمل وحده متاع الرفاق جميعاً .

عبيد الأمس أسوة اليوم :

وكان من بركات خدمة « سفينة » لرسول الله ﷺ مايحكيه سفينة رضى الله عنه :

فقد ركب سفينة فى البحر .. فانكسرت ..

قال : فتعلقت بشئ منها .. حتى خرجت إلى جزيرة .. فإذا فيها الأسد ؟!!

فقلت : ياأبا الحارث : أنا « سفينة » مولى رسول الله ﷺ .

فطأطأ رأسه .. وجعل يدفعنى بجنبه .. يدلنى على الطريق !فلما خرجت لى الطريق .. همهم .. فظننت أنه يودعنى !؟

وهكذا يقف .. سفينة .. الضعيف .. أمام الأسد الكاسر .. فى صحبة خوف من شأنه أن يشل حركة الإنسان .. بل إنه ليجمده ..ليموت من هول الصدمة.

لكن « سفينة » الذى حقق مضمون الإيمان بشقيه بحبه الرسول ﷺ .. وطاعته .. ثم بحركته الاجتماعية خدمة لمجتمعه ..

بهذين العنصرين حقق الإيمان .. فكان الأمان ..

كان الأمان جزاء من جنس عمله ..

وعلى أمتنا أن تعى الدرس جيداً .

فليست النسبة بين سفينة .. وبين الأسد .. كنسبة أمتنا اليوم إزاء أعدائها .. إننا الأوفر قوة .. والأكثر عددا .

فنحن أحق بالأمن الذى فاز به .. الفتى .. المسلم .. مهران ونذكر قوله تعـالى ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأنعام « ٨٠-٨٢» .

همم ترمى .. إلى جنات عدن

فى ذكرى ميلاده ﷺ .. نذكر كيف ولد به الإنسان من جديد .. حين غير اتجاهه .. فكانت همته معلقة بالثريا .. بالجنة .. التى يسعى لها سعيها .. وكان السباق الموصول من أجل جنة عرضها السموات والأرض .. بديلاً عن حياة التمزق .. والضياع ..

إن الحياة كما قيل : ابتسامة .. ودمعة .. وذكرى ..

فأما الابتسامة .. فتزول .. وأما الدمعة .. فتجف .. ولكن .. تبقى الذكرى .. التى تنفع المؤمنين .

ونحن أحوج مانكون اليوم إلى هذه الذكرى .. ذكرى أناس كانت سلعتهم : الجنة .. فلما دفعوا ثمنها .. كانوا أحق بها .. وأهلها ..

وكــان ﷺ – وهو الذى أعدهم لها – .. أجدر بحبنا وتوقيرنا فى ذكراه العاطرة .. بما صاغ من رجال .. وخلف من آثار .

ومنهم الإمام على

تمهيد :

كان عبد الله بن عمر يقول :

ثلاث فى على رضى الله عنه .. تمنيت أن لى واحدة منها .. هى خير من حمر النعم :

١- زواجه من فاطمعة رضى الله عنها .

٢- إعطاؤه الراية يوم خيبر .

٣- تقديمه الصدقة قبل النجوى .

أما عن إعطائه الراية يوم خيبر : فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه :

« أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله » وفى رواية « ويحبه الله ورسوله - يفتح الله على يديه » .

قال عمر رضى الله عنه : ماأحببت الإمارة إلا يومئذ .. فتساورت لها[1] .

رجاء أن أدعى لها .

فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه . فأعطاه إياها وقال :

« امش .. ولاتلتفت حتى يفتح الله عليك » فسار على شيئاً .. ثم وقف . ولم يلتفت . فصرخ :

يارسول الله : على ماذا أقاتل الناس ؟ قال :

« قاتلهم حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله . وأن محمدا رسول الله فإذا

---

(١) أى وثبت متطلعاً .

فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها . وحسابهم على الله»[٢] .

فانظر كيف اتجهت بعمر الأشواق إلى الجنة .. التى استعد عندئذ أن يدفع حياته ثمنا لها ..

ثم تأمل كيف التزم على .. الجندى المسلم .. بما قاله الرسول : «لاتلتفت..»

حتى إنه لما أراد الاستفسار عن غاية القتال ولم يلتفت .. وربما كانت له عندئذ مندوحة .. لكنه لم يفعل !

وإلى هذا الحد كان الالتزام بأوامره ﷺ ونواهيه .

وفى غزوة الأحزاب :

فى غزوة الأحزاب . برز الطاغية « عمرو بن ود » .

ثم قال لرسول الله ﷺ ساخراً :

لقد اشتقت إلى النار التى أوعدتنى بها . فهل عندك من يشتاق إلى الجنة ؟

ولقد حركت الكلمة الساخرة الماكرة .. حركت شجون على رضى الله

(١) رواه مسلم ، رقم ٢٤٠٥ ، كتاب فضائل الصحابة .

عنه .. فنهض .. مشوقاً إلى لقاء الطاغية .

أنهضه الشوق العارم إلى الجنة .. فاستأذن الرسول ﷺ .. فلم يأذن له .

ثم استأذن للمرة الثانية .. فلم يأذن له .. ثم أذن له ﷺ فى الثالثة ..

وهكذا .. يتيح ﷺ للراغب فى أداء الدور الصعب أن يراجع نفسه .. يراجع مدى قدرته على أدائه .. والمراجعة اليوم .. خير من التراجع غدا !!

وتشعل المراجعة جذوة الأشواق فى فؤاد الفتى المسلم .. ليبلغ من الشوق ذروته .. وعندئذ يبلغ الكتاب أجله .. ليجد نفسه وجها لوجه .. أمام الطاغية « عمرو بن ود » .. وفى حوار تنتصر فيه إرادة الإيمان على فورة الطغيان !

قال له « عمرو بن ود » : استصغروك .. فأرسلوك .. لتكون طعمة لسيفى !!

ويرد على . وعلى الفور قائلاً : بل أرسلونى .. لأنى أقلهم شأناً .. (يعنى لست بالرجل المهم .. ليندبوا لك بطلاً) ؟!

وتأمل هذه المبارزة الإعلامية والتى دحر فيها الإعلام الإسلامى الأبى .. منطق الإعلام المادى الغوى .. والذى كان من مظاهر اندحاره أن لجأ إلى التلطف والتودد وذلك قول « عمرو » لعلى :

قد كنت صديقاً لوالدك .. ولاأريد أن أفجعه فيك !!

ويرفض الإباء ذلك الاستجداء قائلاً : ولكنك عدو الله .. وأريد قتلك !!

إن أسلوب المساومة والملاينة لايجدى مع فتى قضيته الأولى والأخيرة هى : الحق .. ولايهمه إن كان أبوه فجع .. أم لا .. وإلا فقد فجعه من قبل حين انخلع من طاعته وأعلن إسلامه صغيراً لم يطر شاربه .

ولقد فرض على شروطه على الطاغية : أن يقول لا إله إلا الله .. أو أن ينسحب مع قواته .. فرفض قائلاً : أخشى أن يقولوا : ضحك عليه صبى صغير .. ولم تبق بعد الاثنتين إلا الثالثة .. وهى :

أن أقاتلك .. وأنت على فرسك .. وأنا على الأرض !

وهكذا المسلم أمام أعدائه : فيه من الإباء مايفتت الحجر .. ومن العناد مايكفى كل البشر .. وفيه من الصمود .. مايجتاح به الخطر ولم يبق أمام الطاغية خيار ..

وحانت ساعة الصفر .. عندما انقض عليه الصقر المسلم .. فقطع رجله .. فحملها .. وقذفها ..

وسمع الصحابة تكبير على رضى الله عنه .. والذى حمل رأس «عمرو» إلى رسول الله ﷺ .. على سيف رسول الله .. والذى كان أعطاه له داعياً .. وانطفأت الروح فى البدن النجس .. وذهب غير مأسوف عليه .

وهكذا يأخذ المسلم سبيله مسارعاً إلى جنة عرضها السموات والأرض .. حين أغمد سيفه فى قلب هذا الطاغية .

ألا إن سيف الإسلام هو ذلك الذى نقطف به رأس الغوى .. ولانؤذى به التقى !! ولا الذمى !؟

أما بعد :

فلا سيف إلا ذو الفقار ولافتى إلا على

ولم تكن فتوته فقط تلك القوة الضاربة الغاضبة لله تعالى .

بل لقد أضاف إلى هذه القوة ذكاء هو من صنع الإيمان .. وذلك حين قال مخادعاً « عمرو بن ود » ساعة الصفر :

أنا لاأبارز اثنين (ولم يكن أمامه إلا عمرو وحده) فلما التفت «عمرو» ليرى هذا الثانى .. عاجله على بالضربة القاضية !..

إنه الخداع .. وليست الخيانة ..

إن الخيانة ضعف .. والخداع قوة ..

وهكذا يسقط الطاغية .. غير مأسوف عليه .

وصدق القائل :

وسوف ترى إذا ثار الغبار   أفرس تحتك .. أم حمار !!

وتأمل مرة أخرى كيف تصرف على رضى الله عنه فى تلك اللحظة الخاطفة ..

وكيف أسعفه العقل بهذه الحيلة .. فى ساعة الخطر ..

وإنه لشاهد صدق على جيل اليوم من الشباب الذين أسلموا زمامهم للعقول الالكترونية .. لتفكر نيابة عنهم .. فاسترخت عقولهم .. وانطفأ بريقها .. ولم تعد قادرة على الابتكار والاختراع !!

بينما العقول التى تستمد وقودها من الإيمان .. أقدر علي أن تظل صاحية قادرة على صنع المعجزات .

وهكذا كانوا : كانت هناك همم كبار تحركت مسرعة إلى جنة عرضها السموات والأرض .. مضحية ببعض مظاهر الدنيا .. فى سبيل هذا المطلب الأسنى :

فى حرب الروم مع المسلمين .. على أرض الشام .. اقترب واحد من الجنود .. اقترب من القائد المسلم : أبى عبيدة بن الجراح وقال له :

إنى قد عزمت علي الشهادة . فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ .. أبلغها له حين ألقاه ؟!

فقال له أبو عبيدة رضى الله عنه : نعم .. قل له : يارسول الله : لقد

وجدنا ماوعدنا ربنا حقا . وعندئذ .. انطلق الرجل بسيفه .. فقاتل حتى استشهد . وكان بالشهادة فى الخالدين .

حدث هذا .. وطبول الجهاد تدق ..

فإذا كان فى السلم رضى من الحياة بالكفاف .. حتى إذا نزلت الآية الكريمة تحض على الصدقة .. انطلق مقاتل الأمس .. انطلق - وبلغة عصرنا - إلى المحطة ليكون حمالاً .. شيالاً .. حتى يتمكن من التصدق امتثالاً لأمر الله .

وقد يعرض الصدقة على صديق له من رفاق السلاح .. فيعتذر عن قبولها قائلاً :

لو أتيتنى بالأمس .. لقبلتها .. لكنى عملت اليوم .. وكسبت ! ولم يكن ذلك التنافس الشريف .. حالات فردية .. وإنما كان ظاهرة أكدها الصحابى القائل :

كنا نحامل .. يقولها .. بلا حساسية كاذبة خاطئة ! وإنما هو العمل الشريف .. تقبل عليه نفوس شريفة يهون عليها أن تختط لنفسها طريقا إلى الجنة .. بمالها . وبحياتها ..

تلاميذ فى مدرسة الرسول

البخارى .. وفن إدارة الأزمات !!

ماذا يعنى – اليوم – هدم قنطرة تربط بين جانبى الوادى ؟

إنه يعنى : توقف الحركة .. وتزاحم الناس .. وبالتالى تتعطل المصالح .. ومازالت الذاكرة تختزن من مشاهد القرية ذلك العراك الموصول بين رفاق الكفاح من الفلاحين .. من أجل وتد قلع .. أو فرع قطع .. أو دور فى السقى استأثر به ..

لقد كان كل ذلك مستصغر الشرر الذى صار فى اللحظة ناراً تلظى .. تبدأ بها سلسلة من المتاعب أو المعاطب .. والتى كان من الممكن وأدها فى مهدها .. لو أنصف كل واحد من المختصمين .. لو أنصف الآخر من نفسه !

ولكن ذاكرة التاريخ مازالت تمدنا بمثل عليا .. كانت عند حسن الظن بها .. فوصلت ما أمر الله به أن يوصل .. وحسمت مادة الشر قبل أن يتطاير شررها .. وبقيت مثلا يحتذى على مدار الزمان :

كان البخارى رحمه الله تعالى رامياً .. وكان رامياً مجيداً .. رمى يوماً وتدا يمسك بقنطرة رجل .. فشقه .. وعلى الفور .. ندم على مافعل .

ثم أرسل أخص تلاميذه إلى صاحب القنطرة .. ليبلغه نيابة عن البخارى ما يلى :

أولاً : المسامحة .

وثانياً : أو أن يصنع له وتدا جديدا .

وثالثاً : أو يأخذ نفقه إصلاحه .

ومن حسن حظ الإمام أن صاحب القنطرة كان من تلاميذه .. والذى قال لرسول الشيخ : بلغه أنا قد سامحناه !

واستبد الفرح بالبخارى والذى استخفه حتى إنه :

أ- وزع فى هذا اليوم ثلاثمائة درهم .

ب- ثم قرأ على تلاميذه كما تقول الرواية خمسين أو خمسمائة حديث

ويتعجب المرء حتى لاينقضى عجبه .! : فصورة البخارى فى خيالنا : صورة راهب فى محراب العلم . أو باحث فى قاعة الدرس : يصل الليل بالنهار فى خلوته باحثاً منقباً .. مستدبرا صخب الحياة .. وفنونها .. وفتونها .. واهباً حياته للعلم النظرى ..

لكننا نراه اليوم ليس رامياً فقط ﷺولكنه بارع فى فن الرمى إلى الحد الذى أصاب فيه الوتد .. على دقته .. ثم بالرمية المسددة إلى رأسه .. فاختل ميزانه ! إن الرجل وفى للسنة التى ائتمن عليها .. ومن وفائه لها أن يكون صورة عملية لها :

فكان مثلاً للمسلم الذى استجمع خصائص الإسلام فى ناحيتيه :

العلمية .. والعملية .. وبخاصة العسكرية منها .

ونتساءل فى بداية تعليقنا على المشهد :

ماهو نوع الخطأ الذى ارتكبه البخارى حتى هب مفزعا مذعورا طالبا من تلميذه الصفح ؟

لم يكن خطؤه علميا .. ولم يكن كذلك أخلاقيا ..

ولكنه خطأ العامل .. الذى يمارس هواية شريفة لحساب الحق أولا وأخيراً .. ثم هى هواية رجل مثل الإمام البخارى .. يدخرها للمعركة الفاصلة بين الحق والباطل ..

ولكن الضمير الحى .. الحساس .. كم يكلف صاحبه ما قبل له به .. والذى يلزمه كلمة التقوى .. وعمل المتقين .. الذين يرصدون كل إمكاناتهم لرفعة الحق فى قاعة الدرس .. وفى ساحة الجهاد .

فهم كما قال قائلهم :

وخير مكان فى الدنا ظهر سابح   وخير جليس فى الأنام كتاب !

ثم هو الإخلاص العميق للحق .. لاللخلق .. فهو واحد بل رمز لهذه المدرسة .. مدرسة التجرد لهذا الحق دون سواه .. والتى يقول قائلهم : لو استطعت لكتمت عملى حتى عن الملكين الموكلين بى !!

منطلقات القضاء على الأزمة :

كان البخاري يدرك بحسه البصير كيف تتفاقم المشكلات .. حين نتركها بتداعياتها لتتعقد وتستعصي على العلاج .. في الوقت الذي يقف الجميع متفرجين .. أو شامتين ..

وأن أولى بشائر الإصلاح أن يبدأ العلاج من أحد الطرفين .. ومن ثم نراه :

أولاً : قرر أن يكون العلاج فورياً . حسماً لمادة النزاع وقبل أن يتعقد الموقف.

وثانياً : أن يكون صاحب مبادرة الصلح .. ولم تأخذه العزة بالإثم مستهينا بما حدث !

وثالثاً : قطع الطريق على النمامين والشامتين الصائدين في الماء العكر.. والذين لاتصفو لهم حياء إلا في المشكلات .. ولو لم يجدوها .. لافتعلوها .

ورابعاً : اختار واحداً من تلاميذه .. بل أقرب تلاميذه إلى قلبه . ضماناً لتوفر عنصر الإخلاص في عملية الصلح .. إلى جانب الحكمة في ممارسة الدور .

وخامساً : أنصف الخصم من نفسه حين اعترف بخطئه .. ثم أعانه على

التسامح لما وسع له دائرة الاختيار بين أكثر من بديل حتى يختار لنفسه مايحلو !

وندرك بعد ذلك كيف تم الصلح فى لحظة .. من حيث توفر إرادة الإصلاح فى صدر البخارى رحمة الله عليه .. والتى أعان بها صاحب الحق على أن يكون مسماحا .. ولم يدخل البخارى فى حسابه أنه أستاذه .. وللأستاذية حقوقها .. ولكنه أبقى للتلميذ حقه بغض النظر عن كل اعتبار .

مظاهر السماحة فى موقف المعتدى عليه :

كان من حسن الحظ .. حظ البخارى أن صاحب القنطرة كان تلميذه.. والذى ظهر من سماحته أنه لم يتنازل فقط عن حقه .. وإنما كان على التنازل دليل على أدبه العالى حين قال للرسول : قل لشيخنا .. أنا سامحناه..

ذلك بأنه لم يواجه الشيخ فى موقف تكون يد التلميذ فيه أعلى .. لأنه المسامح .. بمعنى أنه أعفى البخارى عن نسبة الإحراج التى يحسها المعفو عنه .. ثم يعفى التلميذ نفسه أيضا من نسبة الزهو التى قد تبرق فى نفسه .

إنه الاحترام المتبادل .. بين : الشباب .. والشيوخ .. بين التلاميذ .. والأساتذة .. بل إنه الحب الجامع المانع .

لماذا هذا الفرح العظيم ؟

ولكن .. لماذا فرح البخاري كل هذا الفرح مع أن العافى تلميذه ولايستدعى الأمر كل هذا المهرجان .. لو كان العافى مسؤولاً كبيراً بيده العزل والنقل .. ولو كان قوياً بيده أن يؤذى .. أو يردى لو كان الأمر كذلك : لكان لهذا الفرح مايسوغه .. إلى الحد الذى وزع فيه هذا المبلغ الضخم .. ووسع فيه الدرس هذه السعة !

إنها النفس نفس العالم الذى يستحضر فى وجدانه عظمة الله تعالى.. نفس شعارها :

إذا كان الله معك .. فممن تخاف .. وإذا لم يكن معك .. فمن ترجو؟!! إنها نفوس تجرد نفسها للحق أولا .. وأخيراً .. وأنه لاعاصم من أمر الله إلا من رحم ..

والحق لحمة حياتها وسداها : عليه تحيا وعليه تموت .. نظر إلى المظلوم .. وأين موقعه فى الهيئة الاجتماعية لنعطيه من ولائنا على قدر مركزه الاجتماعى ..

وإنما القضية هى : الولاء للحق أولا وأخيراً .. رضى الناس أم كرهوا.. على حد قول الشاعر :

فكن رجلا كالضرس يرسو مكانه ليمضغ .. لايعنيه حلو ولامر

ولم تكن هذه المبادرة يتيمة الدهر فى حياة الإمام البخارى .. ولكنها كانت حجر الزاوية فى حياته .. ومع تلاميذه بالذات ..

ذات يوم كان يذكر حديثاً .. وكان فى تلاميذه طالب ضرير .. طرب لهذا الحديث طربا حرك جسمه لاشعوريا .. حركة خرجت عن دائرة الوقار .. وعندئذ تبسم البخارى لهذه الحركة ..

هذه البسمة التى كان من الممكن أن تمر كآلاف غيرها من البسمات والضحكات على وجوه مئات الألوف من الساخرين أو الشامتين .. لكنها فى حس البخارى رحمه الله تعالى كانت ذنبا لاينبغى أن يمر بلا عقاب .

لقد تقدم إلى تلميذه طالباً سماحته وعفوه على هذه البسمة .. العابرة.. والتى هى حق الشيخ كبشر قل أن تكون كأستاذ .. وكأنى بالتلميذ الذى جاء يتلقى العلم على البخارى .. دروساً ونصوصاً .. يعود اليوم بدرس فى الأخلاق .. فى سماحة الشيخ البخارى الذى لم تكن وظيفته فقط أن يلقن الدروس .. وإنما هى قبل هذا : إصلاح النفوس !!

ثم .. أما بعد :

فإذا كان شج رأس وتد من الخشب معصية .. فى حس الأبرار ..

فكم تكون المصيبة فاجعة موجعة .. لو كانت رأس إنسان .. من تكريم الله تعالى له أن جعل قتله قتلا للبشرية جميعا..إن فى ذلك لذكرى لكل من استرخص حياة الإنسان وهى بنيان الواحد الديان .

الفردوس المفقود

روى مسلم عن جابر رضى الله عنه :

خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزاة . فأبطا بى جملى وأعيا فلا يكاد يسير . ومر بى رسول الله ﷺ فضربه . ودعا له .. فمشى مشية ما مشى مثلها قبل ذلك .

وقال ﷺ لجابر – وكان يعلم أنه يمر بأزمة مالية –: « بعنى جملك يا جابر » قال : هو لك هبة يا رسول الله .

قال : « لا .. بأوقية من ذهب » . وكان الجمل لا يساوى نصف أوقية .

قال : لا .. بل أهبه لك يا رسول الله .

قال الرسول : « لا .. أشتريه منك بأوقية » . قال : على أن يحملنى الى أهلى بالمدينة . قال : « وعلى أن أدفع الثمن بالمدينة » .

ولما رجعا الى المدينة قال لبلال :

« أعطه أوقية وزده » فأعطاه أوقية وقيراطا . فلما ربط الجمل وانصرف . ناداه : ياجابر ! قال : لبيك يا رسول الله .

قال : « خذ جملك هبه منى » .

ولما أخبر جابر يهوديا بذلك ضرب كفا على كف وقال :

اشترى منك البعير .. ودفع اليك الثمن .. ثم وهبه لك ؟! قلت : نعم »

تمهيد :

عندما يشرق الإيمان فى قلب المسلم ضياء وفى عقله ذكاء .. فإن الإرادة تنبعث منطلقة إلى أهدافها بلا تردد .. ومهما كانت العقبة كئودا .. فإنه يقتحمها . ومهما كان الثمن غاليا .. فإذا كان هذا المسلم جنديا فى معركة .. فإن ذلك يعنى أن الكيان المسبوك بالايمان حقق النصر فى معركته مع نوازع نفسه .

واكتسب صلاحية التفوق فى كل موقع ..

فإذا وجد هذا الجندى قيادة حكيمة تعيش آلامه وآماله .. تعينه على أمر الله تعالى . كان ذلك دليلا على أن المجتمع قد بلغ رشده الواصل به حتما إلى النصر المبين فى معركتة الثانية .. مع العدو الخارجى .

ولقد كان جابر رضى الله عنه .. ذلك الجندى .. وكان ﷺ .. هـــذا القائد الحكيم . وكيف ؟

لقد قرر جابر رضى الله عنه أن يشترك فى الغزوة استجابة لله ورسوله .. رغم بعد الشقة .. وقلة الزاد .. ووحشة الطريق .. وإنه ليترحل ببعيره الهزيل فى سفر طويل ..

ولا يحس جابر بأنه فى الميدان يعانى من قسوة الواقع وقسوة الواجب معا .. وما يترتب على من تأثر دورة العسكرى بقسوة الحياة من حوله ..

ذلك بأن القائد الحكيم ﷺ يقدره قدره . بل يقف إلى جانبه فى أزمته . عن طريق خطة .. لها هدف معلوم :

أما الهدف : أن يحصل جابر على قدر من المال يعف به نفسه وأهله .

وأما الخطة : أن يتم ذلك بطريقة لا تجرح كرامته .

وفى محاولة تنفيذ الفكرة تبدو للمتأملين دروس وعبر .. تتكشف من خلال الممارسة النبوية الكريمة .. تبصرة وذكرى ..

وبادىء ذى بدء :

يضع الرسول الكريم أدبا من آداب الطريق يستلهمه « أرباب المهنه الواحدة » اليوم .. حين لا ينطلق السائق مارا بزميله المتعثر قبل أن يعرض عليه خدماته !

بل إنه ﷺ يعلمنا - وهو الذى أرسل رحمة للعالمين - درسا فى الرفق بالحيوان حين لا يصب غضبه عليه ليمضى على الطريق .. بيد أنه يضبط نوازعه داعياً له بالعافية دعاء من يلتمس العذر حتى للحيوان . فيندفع إلى أمام

ومن الرفق بالحيوان .. إلى الرفق بالانسان على نحو يؤكد دائما أنه حقا : الرحمة المهداة .

تنفيذ الخطة :

لابد من عملية بيع وشراء تأخذ حدودها وشرائطها .. تتوج فى النهاية بثمن مناسب يظفر به جابر حقا معلوما له .. بلا من أو أذى :

إيجاب وقبول .. تم بعد محاروة بين الاثنين ..

لم يحدد الرسول الثمن ابتداء .. ولم يفرضه

بعد أن وافق جابر . حدد الرسول الثمن .

يشترط جابر - من موطن العزة - ألا يسلم الصفقة إلا فى المدينة .

وبالتقابل . يرجىء الرسول تسليم الثمن أيضا ليتم فى المدينة !

وهكذا تواجهنا عملية بيع وشراء لا غبار عليها .. وينجح القائد الحكيم فى تنفيذ الخطة المرسومة المبقية على كرامة الجندي الذاهب إلى المعركة . حين قال الرسول لبلال : « أعطه أوقية .. وزده » .

فإن ذلك يعنى أولا :

أن الزيادة تتم في ظل من الصفقة يراد بها تحسين وضعه الاقتصادى . بحيث لا يشم منها عندئذ رائحة الصدقة !

ويعنى ثانيا :

أن الرسول ﷺ كان يملك أوقية .. وزيادة .. وكان يعلم أن جابرا فى حاجة الى المال .. فلماذا لم يهبه الأوقية ابتداء .. ولا داعى لهذا البيع الذى بدا صوريا ؟ ! !

إن الرسول ﷺ يتيح للرجل أن يظل محتفظا بكرامته .. فلا يدفع اليه المال ابتداء حتى لا يخدش حياءه . وإذا جاءه المنال فمن عرق جبينه .. ومن أشرف مصادره وهو عمله .. بلا منة من أحد .

وتلك هى التربية الاستقلالية المحمدية .. التى صار بها جابر وأمثاله

رجالا .

وتأخذ البهجة على قلب جابر أقطاره فيخبر يهوديا قابله بما حدث !

فماذا قال اليهودى ؟

لو أن جابرا رضى الله عنه قابل فى الطريق أبا بكر مثلا وأخبره بما حدث لما كان هناك داع للتعجب لأن هذا معدن الرسول فى نظره والشيء من معدنه لا يستغرب .

لكن اليهودى وقد علم ذلك ... ضرب كفا بكف وقال : اشترى منك البعير .. ودفع إليك الثمن .. ثم وهبه لك ؟!! قلت : نعم !!

فالمفروض فى منطق اليهودى أن يستغل القائد موقعه ليأخذ البعير اغتصابا أما ما حدث فهو شيء ما سمع به فى أبائه الاولين !

وكان تعجب اليهودى أمارة البعد الشاسع بين منهجين ومجتمعين :

المجتمع المؤمن : والمؤمنون فيه والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... بكل ماتفرضه الولاية من نجدة وتضحية وتعاون .

والمجتمع المنافق : والمنافقون فيه والمنافقات بعضهم من بعض : كلهم صورة للجبن .. والتمزق والأنانية !

وبعد :

فإذا كان القائد هنا حقق بالمواجهة العسكرية شطر مضمون العبودية لله تعالى حين جاهد الكفار تعظيما له . فقد حقق بهذه الشفقة نصفها الباقى .. من حيث كانت العبادة : تعظيم الخالق .. والشفقة على الخلق .

والأمة على نفس الطريق :

وقد مضت الأمة - فى شخص روادها الأوائل - على ذات الطريق الذى مضى عليه ﷺ .. فكانت لهم فى رسولهم الأسوة الحسنة ..تعظيما لله الخالق .. وحنانا ومودة لخلقة :

وقصة : « عبد الله بن عامر » مع جاره « خالد بن عقبة » شاهد على ما نقول : ففى محاولة الخروج من الضائقة المالية كان أمام « خالد بن عقبة» مجموعة من الفروض :

أن يحصل على المال المطلوب خديعة واحتيالا .. أو أن يصل اليه قرضا من صاحبه أو سؤالا ..

وإما أن يبيع داره وهى آخر معقل فى الحياة !

ولقد كان له من دينه ما يمنعه من الخديعة والاحتيال ..

وله من عزته ما يكفه عن تبديد كرامته بين يدى أمثاله من الرجال ..

وما قيمة المال تفتح له الباب .. لتخرج الكرامة من النافذة ؟! ذلك بعينه هو الفقر .. على ما يقول الشاعر :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا ان الخضوع هو الفقر

وبينى وبين المال شيئان حرما ... على الغنى : نفسى الأبيه والدهر

إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خير من وقوفى بها العسر

ولم يبق إلا ان يبيع داره على ما فى القرار من مرارة يحسها وولده . وليكن ... فليبق للرجل دينه .. ولتبق له كرامته .. وإن فقد الدار وحرم بفقدها

القرار .. وباعها لجاره « عبد الله بن عامر » بتسعين ألف درهم .

وفى الليل إذا سجى .. حدثت المفاجأة :

سمع عبد الله بن عامر نشيجا وبكاء .. فلما سأل أهله عن سره قالوا : صاحبة الدار تبكى دارها ! وأنت خبير بقلب زوجة .. وقلوب صغار يكتب عليهم الجلاء من مهد الصبا .. ومواطن الذكريات ؟!

وهز الموقف أريحية الجار الصديق ..

وفى محاولة الخروج من الضائقة النفسية . كان أمام « عبد الله بن عامر » أيضا مجموعة من الفروض :

أن يبرم العقد متجاهلا بكاء الجار . والأسى يعتصر قلوب الصغار ..

أو أن الدار يرد على أن يسترد الثمن .. أو يبقى فى عنق جاره « خالد » قرضا حسنا ..

وإما أن يهب الدار .. والثمن .. معا ..

وكان هذا هو قراره الأخير حين نادى غلامه قائلا : يا غلام : أخبرهم أن الدار والمال لهم !

ولم يكن هناك من جزاء « لخالد بن عقبة » المستمسك بدينه وعزته ..

إلا هذا الذى فعله صديقه وجاره .. جزاء كريما من جنس عمل كريم تبقى به المودة . ويستمر الإخاء . .

ولم يكن هناك أجمل من « خالد » فى إبائه إلا عبد الله .. فى إيثاره .. وبهذا الإباء . وهذا الإيثار بقيت الصداقة قائمة على أصولها من الدين القويم . والخلق الكريم .

ثم .. مـاذا عن ثمـرة هذا الموقف في دنيـا الطفـولة .. وفي عـلاقـات الزوجات هنا ؟ :

إن رجلا كخالد بن عقبة لم يتاجر بدينه .. ولم يساوم على كرامته .. لن يترك الجميل يمر . دون أن يعقد العزم علي رده مضاعفا .. وليس كمثله رجل يرضى أن يظل عبدا لجميل ..

وفى ظل من هذا الإحساس . سوف يحدث الآتى :

سيظل شاكرا ذاكرا – مع اهله وولده – للجميل ذكرا تنعكس آثاره صلة طيبة بين الزوج والزوج وبين الزوجة والزوجة .. والأطفال وأقرانهم من الاطفال ... ويختفى تلقائيا ما يسمى بمشكلات الجيران ..

وغدا يرتد الجميل مشفوعا بمشاعر الاعتزاز بجار لم يقتل فى جاره نوازع الطموح ... وأبقى على الكرامة فيه .. وإذا كان بعض الجيران يتعالي علي كومة من المال .. أو قبسا من الجمال .. ولا يحسب له وجودا إلا بالزهر على جيرانه بهذا وذاك .. فإن « عبد الله بن عامر » استبقى ما هو أغلى من المال .. وأبقى من الجمال .. وهو مودة صاحبه وحسن علاقات الأسرتين ..

ورغم ضخامة الثمن البالغ تسعين ألفا .،. إلا أنه استرخصه ليبقي الود قائما .

إنها لصورة من التعاون على البر والتقوي . يبقى بها المجتمع قويا متماسكا .. تعاون لا يستهدف المال أخذا وعطاء .

بيد أنه أيضا يحفظ العرض أن يهون فى دوامة الشجون فى هجمة الفقر الشرسة ..

تعاون محكوم بقيم الخير :

يفتح الجار عينيه على مأساة جاره ليتحمل تبعتها معه .. وبنفس القوة يغمض هذه العين عن عرض جاره وشرعته قول الشاعر :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

إنها ليلة خير من ألف ليلة فى حياة العابثين الهازلين .. بل خير من زهو المناصب الذاهبة بأهلها إلى المعاطب ! هؤلاء الذين ألهتهم مناصبهم وأموالهم . فأصمتهم وأعمت أبصارهم فلم يسمعوا نداء ولا بكاء ! ولعمرى .. إن فلاحا بسيطا فى قرية نائية يخف لنجدة زميله فى محنته لأسعد بكثير من هؤلاء الناس ...

لأن يكون الرجل فلاحا ينطلق إلى الفلاح .. خير ألف مرة من « مدير» يدير ظهره للناس !

وما أكثر الذين يبالغون اليوم فى التسبيح تعظيما لله تعالى ثم لا يثمر فيهم التسبيح شفقة أو حنانا يتم لهم به معنى العبادة ..

ألا وإن الثوب الوسخ فى حاجة إلى الصابون أكثر من حاجته الى البخور ! وما أحوج الناس اليوم الى الحنان يجتمع به الشمل ويلم به الشعث .. وما أصدق القائل :

الحنان هو ميراثنا العظيم . وهو المادة الأولية الوحيدة التى نصدرها إلى العالم .

الحنان شجرة عربية الجذور ، وهى تكبر .. تترعرع وتعطى ثمرا سكرى المذاق .. طيب الرائحة . رغم ملوحة الأرض . وقسوة الطقس . وشح المياه . وخصام المزارعين . وأكثر التلاميذ يسقطون فى الامتحان لافتقارهم إلى وسادة الحنان ينامون عليها ..

وأكثر العمال العرب .. والصحافيين أيضا يهربون .. لأن الأمة لا تحسب حساب القلب ..

إن الحنان هو أكبر مفاخرنا .. وأغلى عطورنا . وأجمل مناقبنا الباقية وما أجمل أن نعود .. إلى هذا الفردوس المفقود ! .

شجر .. وبشر !

* قال صاحبى :

فى إيران .. يحافظون على الشجرة إلى حد معاقبة من يقطعها بما يردعه عن مثل ذلك .

وفي دول الخليج .. أسبوع للشجرة .. ينشطون فيه فيغرسون ملايين الأشجار .. زينة وظلا ..

ثم يتساءل قائلا :

أليس فى الاسلام توجيهات بهذا الصدد .. تقوم مقام جهود الحكومات .. من حيث كان الوازع الدينى أقوى صوتا .. وأبعد تاثيرا !؟

* قلت لصاحبى :

إن هذا التساؤل وإن بدا مسترشدا .. لكنه ثبت فى الأذهان ثمرة مرة من ثمرات فهم خاطىء لجوهر الإسلام ، فى تصور أعداء ظنوه عبادة فى المسجد .. فحصروا مهمته هناك .. بينما الحياة على اتساعها ملك للانسان .. بعيدا عن منهج الله سبحانه .. بمعنى أن الشجر .. والظل .. والبحر .. والهواء .. كل أولئك مملكة وسيعة ، يستقل الإنسان بتدبيرها بعيدا عن الإسلام الذى لا صلة له بهذا الجمال السارى فى الكون هكذاظنوا . . ولكن الإسلام أعمق وأرحب من هذا كله . .

الذين ابتعدوا عن الحياة :

* ومن الإنصاف أن نبين جانبا كهذا من جوانب ديننا . . ضلت الآراء فيه

ضلالا لا يحتمل الجاهلون وحدهم تبعاته .. بقدر ما يتحمل الدعاة إلى الله وزر تقصير جاء نتيجة لاقتصارهم فى وعظهم على التعميم .. دون الدخول في صميم الحياة ودقائقها .. والتركيز على مشكلات الناس اليومية .. والتى جاء الاسلام لوضعها فى إطارها الصحيح .

وفى هذا المعنى نقرأ قوله ﷺ : « من نصب شجرة فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل » ..

فغرس الشجرة .. وما يترتب عليه من ثمار وظلال .. وجمال أيضا .. شىء مهم فى نظر الإسلام .. وأهم منه أن يصل الزرع بالحفظ والرعاية إلى مرحلة الإثمار المطلوب ..

وهو أمر متروك لتجربة الإنسان وتقديره .. ما دام يتحرك مسوقا بدافع الخير لنفسه ولمجتمعه فى إطار الحياة كما حدده الإسلام .. مستهدفا غاياته فى إسعاد الحياة ونضرتها ..، يحدوه فى ذلك كله أمل كبير فى رضوان الله وحسن ثوابه .. على عمل يظنه الناس دنيويا بحتا .. بينما هو بالنية الصادقة جهاد مبرور ..

فإذا وصل المالك بالزرع إلى يوم الحصاد .. لم يكن المحصول إليه وحده .. وإنما هو له .. ولكل خلق من الله تعالى نصيبه المفروض .. والذى يعود على الزراع بالثواب المدخر له عند الله تعالى ..

* بل إن دائرة المنفعة لتتسع .. إذا علمنا أن الثواب المرصود ليس فقط على

ما يؤكل من الثمر .. بل إنه يشمل كل ما يحققه الزرع من منعه .. أكلا . أو غيره . وذلك قوله ﷺ فيما رواه أحمد عن أبى أيوب رضى الله عنه: أن رسـول الله ﷺ قال : « ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب له من الأجر قدر ما يخرج من ذلك الغرس » .

فكل ما يخرج من النبات : سواء كان ظلا ممدودا يستروحه القائلون أو رائحة طيبة تعطر الجو .. أو رحيقا تمتصه نحلة هائمة .. من زهرة يانعة.. كل أولئك محسوب للإنسان فى صحيفة أعماله ! بالإضافة إلى نسبة « الأوكسجين » المبثوثة فى الفضاء .. مع امتصاص « الكربون » وفوق ذلك : تنقية الجو من أطنان الغبار عبر غابات الأشجار .. تلك المصفاة الالهية .. التى تغرسها يد عاملة .. فيتحقق هذا كله .

وليس هذا فحسب .. فالأجر مرصود عن كل منفعة يجنيها إنسان .. أو حيوان .. وكل مادق من خلق الله تعالى .. مما يحفل به الكون حولنا .. ولا تراه أعيننا ..

وهذا بعض ما يفيده قوله ﷺ :

« لا يغرس مسلم غرسا .. ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة » ، صدقة جارية .. حتى بعد موته .. كما تقول أحاديث أخرى ..

دعوة للزراعة :

* فأنت ترى توجيه الإسلام قد بلغ الذروة فى هذا المجال :

فكل غرس .. وكل غارس وزارع ..

وكل فائدة .. له ثوابه عند الله تعالى ..

وفى هذا ما فيه من الدفع المستمر إلى الزراعة .. بحيث تتحول بالاستمرار الى نهضة زراعية تأخذ شكل الظاهرة العامة فى المجتمع الإسلامى .. ثم إنها تحقق أخيرا وفرة النتاج ، وسكينة الامن .. وهما ركيزتا الحياة المتحضرة : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .. أى أن وفرة النتاج تحقق الاكتفاء الذاتى .. بل ربما صدرت فائضها فى كل اتجاه .. فتخلد بذلك ذكراها على مستوى الدول .. وفوق ذلك تصبح يدها هى العليا .. بما تمنحه من غذاء وكساء .. بالإضافة الى ما توفره لنفسها .. من استقلال نابع من اكتفائها الذاتى .. والذى يحتفظ بشخصيتها قوية بين دول لا يعيش فيها إلا القوى ولا يبقى فيها الا الأصلح .

* فما أجمل الفلاح فى قريته .. عندما يشق الأرض بفأس تحركها يد تستمد قوتها من قلب موصول بالله تعالى .. من أجل شجرة يخضر بها الحقل .. ويطيب بها الجو .. وتسعد فى ظلها الحياة ..

فى مدرسة الرسول

فقراء .. لكنهم أغنياء

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى مجهود .

فأرسل الى بعض نسائه . فقالت : لا . والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك . حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء .

فقال :

« من يضيف هذا الليلة رحمه الله » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله .

فانطلق به إلى رحله . فقال لامرأته : هل عندك شىء ؟ قالت : لا .. إلا قوت صبيانى . قال : فعلليهم بشىء فإذا أرادوا العشاء فنوميهم . فإذا دخل ضيفنا .. طفى السراج ، وأريه أنا نأكل .

وفى رواية : فقعدوا . وأكل الضيف . وباتا طاويين .

فلما أصبح غدا على رسول ﷺ فقال : « قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما » .

زاد فى رواية : فنزلت هذه الآية :

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ « رواه مسلم وغيره »

مدخل :

فى كيان كل إنسان شخصان .. مختلفان .. يتصارعان على الاستئثار بنفسه كما يقولون :

أولهما هو : الذى كونته البيئة .

وثانيهما هو الذى كونته العقيدة .

ولاشك أن المؤمن .. بإيمانه قادر على أن يجعل الغلبة لعامل العقيدة . التى لا تحمله على أن يجود فقط .. بل على أن يؤثر غيره ولو كان به خصاصة .. وهذا ما يشهد به واقع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين :

كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا بدا تمر بستان أحدهم .. يسرع إلى الرسول ﷺ فرحا ببعض ثمره .. ويفرح ﷺ أيضا .. ثم لا يأكل الثمرة الآتية .. ولكن فقط يفرح بها .. ليأكلها فى النهاية أصغر من فى المجلس :

وتلك هى مجالس الأنس !! .. الأنس الحقيقى : يتهادى الكبار أعز ما يملكون .. وبينهم الصغار الذين يؤثرونهم بأعز ما يملكون ..

ويتحول المجلس الى مدرسة تلقن الجيل الجديد معانى : فى الحب .. وفى الإيثار ..

وينشأ ناشيء الفتيان منا .. على ما كان عوده أبوه ..

إنه لا يقرأ الحب والإيثار حديثا فى الكتب .. وإنما يلقاه على الطبيعة!

تمهيد :

شئ عادى فى حياتك أن ينزل بك ضيف فيأكل من طعامك ثم يمضى أما أن يكون المأكول .. هو كل ما فى بيتك من طعام .. وأن يكون فى نفس الوقت عشاء أطفالك العائدين من ملاعبهم .. فى شوق إليه عند المساء ..

وأن يتم ذلك كله بحكمة تجلل الموقف كله .. فذلك ما لا يحدث إلا فى بيئة إيمانية أخذها الإيمان بما يأخذ المؤمنين من إيثار ..

إيثار يتحول الى حقيقة عملية .. لا نظرية ..

حقيقة .. تلبس من الواقع المشاهد ألوانا .. تمشى بها الناس .. فكانت أنس الحياة .. ونور أبصارها ..

إيثار .. لا يشكل قضية مجردة يدور حولها جدل فارغ .. لتحديد أبعادها فى الذهن .. الذى يتصورها .. لكنه لا يعمل من أجلها ..

به الفضيلة التى يصنعها الإيمان .. حين يثير أشواق القلب فيهم بمحاسن هذه المثل العليا .. ويطير بصاحبه إليها فى كل واد ..

لا يبالى ما يصحبه من ظمأ .. ولا نصب .. ولا مخمصة .. ولا ما ينفق من نفقة صغيرة أو كبيرة .. إرضاء لأشواق قلبه .. وتحقيقا لزينة حسه ونفسه .

وذلك ما نحاول إمتاع أبصارنا وبصائرنا به الآن .. بين يدى هذا الحديث الشريف .

حق الطعام :

* لم يجد الرجل المتعب الكدود حرجاً .. أن يشكو الى رسول الله وعلى الملأ.. فذلك خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ..

وخير للمجتمع أن يبحث الفرد فيه عن لقمة العيش عن طريق مشروع.. بدل أن يحصل على حاجته بالسطو .. أو بالاحتيال ..

وما كان على النبى من حرج فيما فعل : لقد قطع الدرس العلمى .. حتى يجد للمعدة الخالية ما تقر به ! فالشبع أولا ... ثم العلم ثانيا !! ثم .. لقد تحمل مسئوليته أولا كحاكم مسؤول عن طعام الجائع .. حين أرسل الى بيته مستفسراً عن مدى استعداده لاستقبال الضيف .

فلما لم يجد طعاماً فى بيته عرض الأمر على أصحابه .. على نحو يثير فيهم الحماس .. بما بشر به من رحمة الله . المرصودة لكرام الناس .. مع ملاحظة أنه ﷺ لم يعين المضيف .

فقد يكون الرجل غنيا . لكن .. قد تكون له ظروف أسرة لا يستطيع معها استقبال الضيف الآن .

أبو طلحة يفوز بالضيف :

وفاز أبو طلحة الأنصارى بالضيف !

ولما لم يجد فى البيت إلا قوت الصغار لم يؤثر في قوة أعصابه .. وتحمل الموقف بشجاعة مكنته من وضع الخطة .. خطة إكرام الضيف على النحو الاتى :

ألا يشعر الضيف بحركة غير عادية في البيت فراراً من إحراجه ..

أ - فلتظهر امرأته أنها .. تصلح .. السراج .. تمهيدا لإطفائه فى حركة خاطفة لا يحس معها بفجوة يملؤها خياله بصورة تمسك يده فلا يأكل..[1]

ب - ألا تقسر الصبية على النوم قسرا يحملهم على التمرد والصياح .. فتفشل الخطة !

ولكنه حنان الأم الودود يهدهدهم .. فيسلمون أعينهم للكرى !

فليست القضية فى جوهرها : أن يحصل الغريب على حقه في المأوى والطعام .. بلا حرج .. وأن تقوم الأسرة بواجبها دون تذمر أو ضيق ..

ولاحظ أن الزوجين لم يتلاحيا حتى لا يتحرج الضيف .. وأسعفتهما المروءة بالعمل فى صمت .

روح الواجب :

إن القيام بالواجب لمجرد إبراء الذمة .. والخروج من العهدة .. حركة آليه لا يقف من ورائها خلق أصيل ..

والمطلوب .. أن تستشعر فى قرارك روح هذا الواجب فى إشاعة الأخوة .. والتمكين لها فى النفوس ..

إن الواجب هنا .. ليس مجرد لقيمات يقمن صلب الإنسان .. ولكنه - بالدرجة الأولى - كيف يخرج مجبور الخاطر .. ريان النفس بمعانى هذه الأخوة الإسلامية .. التى تترك آثارها فى حنايا نفسه .. فإذا به يندمج فى

---

(١) أشارت بعض الروايات إلى ذلك .

الدور .. وهو يتحرك بين المجتمع .. متأثرا بما رأى وما سمع .. فإذا به جندى عامل .. آمل .. فى أمة لم تتخل عنه فى ساعة العسرة بل وآثرته على نفسها .. فى لحظات يعز فيها الإيثار .. لقد وجد .. وبالذات فى بيئة إيمانية خالصة .. يشعر فيها الإنسان بيسر ما يلقى علي كاهله من أعباء العيش .. ويحس بخفة ما يزاول من أعمال تبدو للعين المجردة معقدة ..

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ ذلك .. بأنه لا يعمل فى تلك الأعباء بطاقتة الحيوية وحدها .. بل بمدد من الطاقة الروحية التى حلت فى كيانه كذلك .

بالإضافة إلى أن إكرام الضيف هنا .. استجابة لرسول الله ﷺ وطاعة له وذلك قوله : (ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً)

وله من هذه الحيثية أهمية خاصة .. تعين الطبع الكريم أن يصل فى الإيثار .. الى أبعد قرار !

وتمضى الليلة المباركة .. والناس من حول أبي طلحة نائمون .. لا يعلمون شيئاً مما حدث ..

فليس فى الأمر ما يستلفت النظر .. بادى الرأى .. ولكن الله عز وجل .. يعلم كل ما حدث .. ويقدره عز وجل قدره فيسجله فى كتابه الكريم .. تبصرة وذكرى .. لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..

كرم الجاهلية :

فلنفتح قلوبنا .. ولنرهف أسماعنا الآن – وبضدها تتميز الأشياء –

لنسمع صوت التاريخ يحكى لنا نبأ من ذلك الكرم الذى سارت بذكره الركبان .. لنرى فرق ما بين البيئة الإيمانية .. والبيئة الجاهلية ؟ !

لقد بلغ التنافس فى الشرف منتهاه بين حوشب بن يزيد .. وعكرمة بن ربعى .. مما دفع الأخير أن يشترى دقيقا محمولا فى سفائن ضخمة .. ثم أمر قومه بعجنه كله .. فعجنوه ووضعوه فى هوة عظيمة .. وتفتق الذهن المترف عن حيلة .. فغطى الدقيق في الهوة بالحشيش تعمية .. فلما ثار فرس حوشب .. اندفع فغرق فى هوة العجين !!

وطار عكرمة من الفرح .. أن نجح فى حيلته .. وحرك الألسنة بثناء على عمل .. لم يطعم جائعا .. ولم يستر عرياناً . !

ويالفضيحة عكرمة الذى طوقه ثمن دقيق صار ديناً فى عنقه .. بل .. يالفضيحة بيئة تصفق للتهريج .. وتمكن للقيم الهزيلة أن تأخذ مجراها ..

وتبقى لقيمات أبى طلحة مثلا فى العالمين .. تعكس ما في طبيعة الإنسان من حوافز الخير .. وعواطف البر .. المتشوقة إلى تزكيتها فى ضوء الإيمان بالله عز وجل .. وفى غيبة هذا الإيمان .. لا تجد الأمة رى الظمأ .. ولا شبع الجوع .. ولا جبر هذا النقص .. ولا حياة هذا الموات ..

وقد تجد فى حياة الأمم – التى لا تستظل بظل الإيمان – عمائر تناطح السحاب .. وقذائف تعبر القارات .. لكنها مع ذلك تظل جائعة .. عارية .. ظمأى .. لانها ترتوى من غير مصدر .. كالطفل الجائع الذى لم يهتد إلى ثدى أمه .. فالتقم أصبعه .. فما عسى أن يذهب ذلك من ظمئه وجوعه ؟!

وعلى الجانب الآخر .. يبدو أبو طلحة رضي الله عنه .. بلقيماته المعدودات :

« يشعر بغبطة ورضا .. إنما هو سر نبع فى وجدانه . من عالم غير عالم الكميات التى يحصرها الحيز . أو يحصيها العد . أو يقدرها الكيل والميزان .. فهو سعيد مغتبط لغير سبب من أسبابنا المنظورة » .

وهو بهذا الامتلاء الروحى .. وبهذا الضمير المغتبط مثل أقامة الله تعالى .. لأناس من عباده . لا يملكون عمائر .. ولا ضياعا .. لكن ثروتهم الحقيقية فى هذا الكنز المستكن من نفوسهم فى قرار مكين ..

إنهم فقراء لكنهم أغنياء !!

وآخر دعوانا

أن الحمد لله رب العالمين

